المكتبة الثقافية
٣٣

أعلام الصحابة
المجاهدون

محمد خالد

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

١٥ مارس ١٩٦١



المكتبة الثقافية

- أول مجمـوعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعـرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

الفنون الشعبيّة

للأستاذ رشدى صالح

اول إبريل ١٩٦١

دار القلم بالقـاهرة

الثمن ٢ مـ

المكتبة الثقافية
٣٣

أعلام الصحابة
المجاهدون

محمد خالد

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

١٥ مارس ١٩٦١



١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آل بيته الكرام وصحابته العظام . أما بعد : فقد أوردت فى هذه الرسالة سيرة طائفة من صحابة رسول الله ﷺ ، الذين حملوا ألوية الجهاد على عهده وعهد خلفائه الراشدين ، وبعض هؤلاء المترجم لهم معروف مشهور ، وسائرهم لا يعرفه إلا أهل الذكر فقط وإن كان أثره فى الجهاد مجيدا ، وبلاؤه فى نشر الدعوة الإسلامية حميدا !

وقد آثرت بالتنويه هذا الطراز من الصحابة ـ بعد أن قدمت التعريف بأولى الرأى منهم ـ لكى يتم العلم بتاريخ هذه الصفوة المختارة من الرجال ، ويقف القراء أثناء ذلك ـ من طريق محبب ـ على أهم أحداث الصدر الأول من تاريخ الدعوة الإسلامية ، وما انتظمه من مكارم جلت عن الوصف ، ومعالى حلقت فى سماء المجد ، ومحامد أخلاقية لا تزال تتراءى حتى اليوم ، وكأنها المثل العليا لأسمى الصور الإنسانية فى البطولية والفدائية والإيثار !

وأحب أن أنبه إلى أمر مهم فى هذا المقام ، ذلك هو أننا لم نعمد إلى الحصر لضيق المجال ، وعلى ذلك هناك شخصيات

كثيرة لم نسعد بإضافتها إلى هذه القائمة ، بينما سعدت بتأريخها الموسوعات ، وحفلت بها المطولات . وجملة مايسعنا من الاعتذار عن ذلك ـ فوق ما أسلفناه بشأن ضيق المجال ـ هو أننا عمدنا إلى اختيار ذوى الشأن الأكبر فى تاريخ الجهاد الإسلامى ، وأرجأنا من يليهم إلى مقام آخر نرجو أن نعان عليه قريبا إن شاء الله !

كذلك أرجو أن يكون مفهوما أن طبيعة المجال قد تحكمت فأملت علينا طابع الإيجاز فى إيراد هذه التراجم . ولولا ذلك لما كفت هذه الرسالة برمتها فى التعريف بواحد ممن شرفت بانتظامهم فيها ، وإن كان قارئها سيحس ـ بعون الله ـ أنه لم يفته شىء كثير ، إذ كنا قد أحطنا بأصول المسائل ، وحرصنا على تسجيل أهم الوقائع فى تاريخ كل واحد منهم !

ويهمنا لهذه المناسبة أن نشير إلى أن وقائع هذه السير مستمدة من كتب التاريخ المعوّل عليها . ومن أصح روايات هذه الكتب ، وأكثرها ملاءمة للعقل ومسايرة لصفات ذلك العهد الإسلامى الرائع من كل نواحيه ، المشرق من كل جوانبه . أما ما عدا ذلك من التعليقات والتعقيبات فهو من عندنا . وقد آثرنا فيه القصد ، وأردنا منه توضيح بعض المسائل ، وتعليل

غيرها مما يدعو إليه الحال ويقتضيه المقام !

وقد راعينا فى ترتيب التراجم عنصر الزمان ، فبدأنا بأول مترجم عقد له النبى ﷺ لواء ، وثنينا بمن يليه وهكذا ، وذلك خير - فى رأينا - من الترتيب بحسب السن أو النسق الأبجدى أو مكانة الأشخاص أنفسهم ، لما يمتاز به الترتيب الذى اخترناه من مطابقة التاريخ العام ، ومن الاحتفاظ بنسق الحوادث وتسلسلها .

وأرجو ان أكون قد وفقت لخدمة القراء ورضاهم .

محمد خالد

سعد بن أبى وقاص
فاتح العراق

هو سعد بن أبى وقاص الزهرى المسلم السابع وفاتح العراق ، وأحد العشرة الذين قُبض رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وأحد الستة الذين اختارهم عمر لمّا طُعن وأيقن بالموت ليُنْتَخب الخليفة من بينهم ، وعلم من أعلام الصحابة ، وفارس مبرّز من فرسانهم ، ووجيه عظيم من وجهائهم .

أسلم سعد وهو ابن سبع عشرة سنة . وكان ممن هداهم الله على يد أبى بكر الصديق . ولما أعلنَ إسلامه غضبت أمه — وكان باراً بها — وقالت : يا سعد، ما هذا الدين الذى قد أحدثت ؟! لتدعنَّ دينك هذا أولا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعيرَ بى فيقال : يا قاتل أمه !

فقال : لا تفعلى يا أمّهْ ، إنى لا أدع دينى هذا لشىء ! ، فمكثت يوما وليلة لا تأكل ولا تشرب، وأصبحت وقد جُهِدَت، فلما رآها قال : يا أمّه ، تعلمين والله لو كان لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى ، إن شئت فكلى أولا تأكلى، فلما رأت منه الجِدّ أكلت !. وفى هذه الواقعة نزلت الآية

الكريمة : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا »[1] الآية .

بعث النبي ﷺ سريةً في السنة الأولى للهجرة برياسة عُبيدة ابن الحارث ، وفيها سعد بن أبي وقاص إلى مكان بالحجاز يدعى رابغ لمعارضة تجارة لقريش ، فلما تراءى الفريقان تقدم سعد صفوفَ المسلمين ، ونثر كنانته[2] وفيها عشرون سهما ، ورمى واحدا منها ، وكان من العلم اليقيني عند كل قريش مسلمِها وكافرِها أن سعداً لا يخطىء إذا رمى ، وكان معنى ذلك أنه سيقتل من المشركين عدد ما بقي من سهامه فلم يسعهم إلا أن ينصرفوا ، وكان عددهم أضعاف عدد المسلمين ، وفي هذه الواقعة يقول سعد بن أبي وقاص :

ألا هل جا رسولَ الله أني حميت صحابتي بصدور نَبْلي
فما يعتدُّ رامٍ من معدٍّ بسهم معْ رسول الله قبلي

أول لواء يعقد لسعد

وعلى رأس تسعة أشهر من هجرة النبي ﷺ علم أن تجارة لقريش ستمر في هذه الآونة ، فعقد لواء أبيض لسعد بن أبي وقّاص ، وامره بمعارضتها وسيّر معه عشرين من المهاجرين ،

(١) سورة لقمان ، الآية ١٥ . (٢) الكنانة : جعبة السهام .

وسار القوم يكمنون بالنهار ويسيرون بالليل حتى بلغوا المكان الذى أمِروا أن لا يتجاوزوه واسمه الخرار[١] ، فوجدوا العير[٢] قد فاتتهم فرجعوا إلى المدينة !

موقفه فى أحد :

وليس لكثيرٍ من الناس مثلُ موقف سعد بن أبى وقّاص مع الرسول الكريم يوم أحد بعد أن انفضّ نظام الجيش الإسلامى إثر ما أرجف به المشركون من أن محمداً قتل، فقدثبت سعد مع الفئة القليلة التى التفّت حولَ الرسول العظيم وَوَقَتْه بأجسامها ، وفدته بنفوسها ، وكان سعدٌ يرمى بسهامه كل من يحاول الاقتراب من مُقام الرسول. وكان الرسول يناوله السّهام، ويقول له : « ارم فداك أبى وأمى » .

قال على بن أبى طالب : ماسمعتُ النبى ﷺ يجمع أبويه[٣] لأحد غير سعد .

ضحك النبي !

وكان رجل من مشركى قريش فى غزوة الخندق قد أثقل

---

(١) الخرار : واد يتوصل منه إلى الجحفة .

(٢) العير : قافلة التجارة .

(٣) يجمع أبويه : أى يقول له : فداك أبى وأمى !

على المسلمين بسهامه ، فرماه سعد بسهم أصاب جبهته فخرّ صريعا ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجزه !

يحرس الرسول :

وسهر النبي ﷺ ذات ليلة بالمدينة ، وكان وقت فزع ، فقال : « ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة » فما كاد يتم جملته حتى سمِع صوتَ السلاح . فقال : « من هـذا ؟ » قال سعد بن أبي وقاص : أنا يا رسولَ الله جئت أحرسك . فدعا له الرسول العظيم ونام !

هذا خالي :

وكان النبي ﷺ يحبّ سعداً ويكرمه ويقدمه، وقال يوما لأصحابه ، وقد رآه سعدا مقبلا :

« هذا خالي فلْيُرِنِي امرؤٌ خاله » !

ومن المعروف أن أم النبي ﷺ من بني زُهرة وهي ابنة عم أبي وقّاص والد سعد .

فاتح العراق ومبيد دولة الأكاسرة :

لما فرغ أبو بكر من حروب أهل الرّدّة وصارت الجزيرة

العربية مؤمنة مرة اخرى وإلى يوم الدين إن شاء الله ، سيّر جيوشه إلى الشام وإلى فارس، وقد كان من أبرز الرجال الذين اقتحموا حدود فارس واستولوا على كثير من أطرافها المُثَنّى ابن حارثة الشيباني ، فقد كان خبيرا بهذه المناطق ، جريئا على المجوس سريع الحركة واسع الحيلة ، وكان إلى ذلك أول من اجترأ على الفرس وجرّأ الناس عليهم ، فقد كان سواد القوم ما يزال مأخوذاً بعظمة الدولة الكسروية ، وكثرة جيوشها ، وعظم استعدادها ، وضخامة عددها ومواردها ، فلما ضرب المثنّى بن حارثة المثل على أن القوم يُهزمون ويُغلبون ولو كان عددهم أضعاف عدد جيشه ، ومهما بلغت عدتهم الحربية من الضخامة والقوة بالنسبة لعدته البسيطة ، فتح الباب لغيره من الناس ، وأزال ما كان لهذه الدولة فى نفوس بعضهم من جلالة ومهابة !

ثم جاء من بعده خالد بن الوليد مبعوثاً من قبل أبى بكر بعد أن انتهى من حروب الردة فضمّ المثنى بن حارثة إليه وأحسن إمداده وتوجيهه ، وكان لهما من الأثر فى تدويخ الفرس ما يعرفه الواقفون على تاريخ فتح العراق . ولكن أبا بكر أمر خالدا أن يرحل بنصف جيشه ليمد إخوانه بالشام فى واقعة اليرموك ، حيث أن الروم قد جمعوا لهم وأرادوا الدخول معهم فى معركة

فاصلة . فرحل خالد إلى الشام ولم يعد إلى العراق ، ثم توفى أبو بكر وجاء عمر . فكان أول ما فعله أن ندب الناس لجهاد الفرس . فانتدبوا فجعل أبا عبيدة بن مسعود الثقفى أميرا عليهم ، وضم إليه المثنى بن حارثة فاستشهد أبو عبيدة فى واقعة الجسر [١] واستشهد معه بضعة ألوف من المسلمين .

ثم كان من أمر الفرس أنهم أجمعوا على تمليك أحد أبناء كسرى عليهم واسمه « يزدجرد » والتفوا حوله لمواجهة العرب فنشط إلى هذه المهمة، وسارع إلى الحشد والتعبئة العامة، وجيّش الجيوش وانتخب قادتها من أعظم رجال الدولة بأسا ، وأشدهم مراسا ، وتهيأ للزحف على المسلمين !

وعلم المثنّى بن حارثة الشيبانى بذلك فكتب به إلى عمر بن الخطاب ، فورد عليه من الأمر ما أهمّه وأقلقه ، ورأى أن لا كفاء للموقف إلا أن ينصب هو له . فكتب إلى الولاة بالجزيرة العربية أن يندبوا الناس للجهاد ، فلما بلغت الحشود مبلغا يرضيه استخلف على المدينة عليا بن أبى طالب ، وخرج بالجيش حتى بلغ منزلا بضاحية المدينة يدعى صرار ، فعسكر به ، ودعا كبار

(١) موقعة الجسر كانت بين جيوش الفرس والعرب ، وسميت بذلك لأنها دارت حول جسر مقام على نهر الفرات .

الصحابة من المهاجرين والأنصار ليستشيرهم فى الأمر ، وأمر باستدعاء على بن أبى طالب ليشترك فى المداولة فحضر ، وبسط عمر خطته فأبان عن مبلغ الخطر الذى يتعرض له المسلمون بفارس ، وكيف أنه لم ير درءاً له إلا أن يخف إلى نجدة العرب بنفسه !

الأسد فى براثنه :

وكان عبد الرحمن بن عوف جريئا على عمر ، فعارض رأيه وبين أن بقاء عمر بالمدينة قوة للمسلمين ، ذلك أنه إذا نهض للأمر بنفسه ولم تكن العاقبة له انهدّ صرح الإسلام ، ولا كذلك إذا كان غيره فى مقامه ، فإنه يُتبعه بآخر من غير حرج أو مشقة !

فسأله عمر : من ترى لهذه المهمة ؟

وبينما راح عبد الرحمن يجيل فكره فيمن يرشحه لهذا الأمر ، ورد البريد يحمل كتابا من سعد بن أبى وقّاص وكان أميرا على هوازن رداً على كتاب عمر بشأن الحشد والإمداد ، وكيف أنه انتخب ألف فارس من ذوى النجدة والبأس وأرسلهم إليه !

وهنا قال عبد الرحمن بن عوف : وجدته يا أمير المؤمنين

إن هو الأسد فى براثنه : سعد بن مالك (هو سعد بن أبى وقاص) فكأنما ذكّر الناس بمن لم يكن ينبغى لهم أن ينسوه ، فهتفوا جميعا : هو لها ! . .

وكتب عمر إلى سعد يستدعيه فحضر فأمّره على حرب الفرس وأوصاه وصية كريمة جاء فيها :

يا سعد : « إنى قد وليّتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى ، فإنك تُقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق ، فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به ، ولا يغرّنك من الله أن قيل : خال رسول الله ﷺ وصاحبه ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسبٌ إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ عليه منذ بعث إلى ان فارقنا فالزمه ، هذه عظتى إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين » !

ثم عقد له اللواء وشيّعه ، وكان عدد جيش سعد حين خروجه من المدينة أربعة آلاف مجاهد ، ثم أخذ عمر يرسل وراءه الإمداد حتى بلغ بما كان قبل فى العراق بضعة وثلاثين ألف رجل .

فى القادسية :

وسار سعد حتى بلغ أطراف العراق ، فكتب إليه عمر أن ينزل بجيشه القادسية ، وإنما اختارها لأنها تقع على حافة الصحراء حيث يكون للعرب مجال ولا يؤتون من خلفهم !

وكان عمـر قد كتب إلى المثنى بن حارثة بتأمير سعد ابن أبى وقاص ، وتقدم إليه أن ينسحب هو وجميع الجيوش الإسلامية من سواد العراق ، ويرابطوا على حدود الصحراء . فلما بلغ سعد حدود السواد ونزل بالقادسية كتب إلى المثنى وجميع الأمراء أن يفدوا عليه ، فوفد الأمراء ، أما المثنى فقد أقعدته جراحه فى واقعة الجسر عن الرحيل فأرسل أخاه المعنّى وأهله إلى سعد ، وكتب إليه برأيه فى الفرس وحروبهم ، ثم مات إثر ذلك رحمه الله .

رستم يسير إلى سعد :

مكث سعد نحو أربعة أشهر والفرس لا يزعجونه بشىء وكان يرسل السّرايا فتغير على أطراف فارس وتستولى على الأرزاق والأسرى ، ثم سار إليه جيش فارس وعدته حوالى مائتى ألف ، وعلى رأسه رستم أكبر قواد الفرس وأعظمهم شأنا بعد كسرى

وكان مع الجيش ثلاثة وثلاثون فيلا قد درّبوا على الحرب وفوقهم الرجال كأنهم الجبال !

وأرسل رستم إلى سعد : أن ابعثوا إلينا رجلا رشيدا يكلمنا ونكلمه ، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب ، فلما بلغ رستما وهو على سرير من الذهب دَلَف حتى جلس إلى جانبه ، وأرادت بطانته أن تمنعه فزجرها رستم ثم قال للمغيرة فى كلام طويل : نحن نعلم مبلغ ما أنتم فيه من شظف العيش ، ولا يسوءنا أن نُفْضل عليكم بالزاد والكساء حتى تنصرفوا ! فأنا لا أشتهى أن أقتلكم !

فقال المغيرة : لقد جئنا ولن نعود وليس لكم عندنا إلا واحدة من ثلاث : إما الإسلام وإما الجزية وإما الحرب !

فغضب رستم وتوعّد المُغيرة بالحرب القاصمة :

سعد مريض :

وفى اليوم التالى التقى الجيشان . وكان سعد مريضا لا يستطيع ركوب الخيل ولا الجلوس نفسه فلم يشهد الحرب ، إنما وُضع له سرير على مرتفع ليشهد القتال ، وجعل على الناس خالد ابن عرفطة ، وأقامه بحيث يستطيع أن يسمع توجيهاته للمعركة ،

ثم أمر قارئ الجيش أن يقرأ سورة الأنفال ، وكبَّر ثلاثا ، وعند الثالثة برز أهل النجدة من المسلمين فأنشبوا القتال . وحملت الأفيال فتحامتها الخيل لشدة خوفها ، فعمد شجعان المسلمين إلى راكبى الفِيلة فرمَوْهم بالنبال فى أعينهم حتى ضعضعوهم وأكثروا فيهم قتلا وجراحا ، وإلى الفِيلة فأخذوا بأذنابها ، وقطعوا الحبال التى تمسك رحالها فهوت على الأرض وتحتها راكبوها من الفُرْس فداستهم الفيلة وولَّت حائرة طائشة من أثر حراب العرب فى أعجازها ، وهى تعوى من الألم كالكلاب ، وظل القتال دائرا حتى انتهى النهار وجاء الليل فتحاجز الجيشان !

وفى اليوم الثانى جاءت نجدة من الشام إلى المسلمين وعلى مقدمتها القَعْقاع بن عمرو ـ وكان أبو بكر يقول فى وصفه : لا يهزم جيش فيه القعقاع ـ فبارز القائد الثانى للفرس واسمه بهمن جاذويه فقتله ، واستمر يقتل كل من برز إليه من الفرس وانتهى اليوم الثانى ، وقد أثخن المسلمون فى الفرس وجرَّدوهم من الغرور الذى كانوا فيه ، بسبب ما لهم من الكثرة والتفوق فى العُدَّة ، ولاح للمسلمين الظَّفَر !

ولما كان اليوم الثالث أعاد الفرس نظام الفيلة ، وأحاطوها بالرجال ليمنعوا العرب من الوصول إليها ، واشتدت الحرب

وصمد الجيشان بعضهما لبعض ، ونظر سعد - وهو على محفته - ما يلاقيه جيشه من الفيلة ، فاستدعى إليه جماعة من مسلمى الفرس كانوا يحاربون معه وسألهم : هل للفيلة مقاتل ؟ قالوا : نعم . مشافرها وعيونها . إنها إذا أصيبت فى شىء من ذلك لاينتفع بها .

فأرسل سعد إلى القعقاع بن عمرو وأخيه عاصم بهذا الرأى ، وطلب إليهما ان يكفياه الفيل الأبيض كبير الفيلة وقائدها ، وإلى آخرين أن ينصبا لفيل آخر يلى الفيل الأبيض فى الخطر ، فعمد القعقاع والآخرون إلى الفيلين ووضعوا رماحهما فى أعينهما فطرحا راكبيهما وبركا على الأرض ، ثم ضربوا مشافرهما ، فولى الفيلان واخترقا صفوف الأعداء وتبعهما سائر الفيلة ركضا وهى تخبط الفرس بأيديها وأرجلها ، وتحدث فيهم من التكاثر والهزيمة ما لم يكونوا يحتسبونه ! .

وحمل المسلمون إثر ذلك على الفرس حملات صادقة حتى جاء المساء فازداد القتال شدة وعنفا ، وظل هكذا حتى الصباح . استمات الفريقان فى مواقفهم ، واستبسل الجيشان فى العراك حتى رأى العرب والعجم أمرا لم يروا مثله قط !

ولما أصبح الناس ، والقتال لا يزال ناشبا ، تنادى رؤساء القبائل وفرسان العرب يهيبون بإخوانهم أن يثبتوا ويقاتلوا

وينصروا دين الله ، وهتف حماة الجيش بزملائهم : إن النصر وليد الصبر وإن ساعة من الثبات والجلاد هي به كفيلة ، وأشعلت هذه الهتافات الحماسة في قلوب الأبطال فهجموا على القلب فأزاحوا من كان فيه من صناديد الفرس ، وهبت ريح شديدة عند الظهيرة ، فقلعت طيارة (١) رستم عن سريره ، فهوت عنه ، وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير فعثروا به وقد قام رستم عنه ، ووقف في ظل بغل من بغال قدمت إليه تحمل مالا ، فضرب هلال بن علفة حمل البغل - وهو لا يرى رستم إذ كان في الجانب الآخر - فوقع الحمل عليه فصرعه ، ورآه علفة فضربه بسيفه فجرى نحو النهر وطرح نفسه فيه ، فاقتحم علفة النهر وأخذ برجله حتى أخرجه من الماء وأجهز عليه ، ثم صعد السرير وصاح : إلى ! . . إلى الناس ، فقد قتلت رستم ورب الكعبة !

ولما رأى الفرس مصرع قائدهم الأكبر انخلعت قلوبهم وتخاذلت عزائمهم فركنوا إلى الفرار والمسلمون في إثرهم يمعنون فيهم ضربا وتقتيلا ، وكان بينهم ثلاثون ألف رجل مقرنين في السلاسل لم يستطيعوا الحراك فذبحوا ذبح الخراف ؟

وأصيب من المسلمين في معارك القادسية ثمانية آلاف شهيد .

---

(١) الطيارة هنا شيء ينصب فوق السرير كالمظلة لاتقاء الشمس .

معركة لم ير العرب مثلها :

وكانت معركة القادسية اشد معركة خاضها المسلمون ، ولم يلقوا مثلها فى الشام أو العراق ، ولا عرف فى تاريخ الفتوحات نظير لها ، لقد ظلت دائرة ثلاثة أيام حتى المساء وفى اليوم الثالث استمر القتال طوال الليل حتى ظهر اليوم الرابع ، لا وقت للراحة ولا شىء هناك من طعام أو شراب !

انتحار جماعى :

لقد خاض الفرس المعركة وهم يمنون أنفسهم بملهاة من ملاهى الحروب ، لا يلبثون أن يشرعوا سيوفهم ويجولوا بوحوشهم من الفيلة حتى يركن العرب إلى الفرار ، ولكنهم رأوا من شجاعة العرب وشدة بأسهم واستهانتهم بالحياة وإقدامهم على الموت ما أذهلهم وأطاش عقولهم حتى أنهم كانوا من شدة الغيظ بل من الحنق على أنفسهم بعد الهزيمة يجلسون جماعات على الأرض ملقين سلاحهم ليقتلهم العرب كيف شاءوا ، وهذا هو الانتحار الجماعى !

أما خطر هذه المعركة فى نظر العرب فقد كان من الهول بحيث أن جميع سكان الجزيرة العربية من حجازيين ويمنيين

وغيرهم علقوا عليها أعظم النتائج : إن خيرا وإن شرا، وقد كانوا جميعا يترقبون أخبارها وينتظرون انباءها ، وهم فى اقصى حالات التلهف والرجاء من الله أن ينصر المجاهدين فى سبيله !

هذا هو عمر :

وكان عمر بن الخطاب يخرج كل يوم إلى ظاهر المدينة مما يلى طريق العراق ، ويمضى فى هذه الوجهة يتنسم الأخبار ويستقبل الوافدين إلى المدينة ويسائلهم عما سمعوه من أنباء القادسية !

وبينما هو فى إحدى غدواته الاستخبارية ، إذا براكب يركض ناقته نحو المدينة ، فأسرع نحوه وقال :

من أين ياعبد الله ؟

فأجابه الراكب ـ وهو لايزال يركض ناقته ـ :من القادسية!

قال عمر : حدّثنى !

قال : هزم الله العدو !

قال : زدنى !

فأخذ البشير يحدثه وهو يسرع السير وعمر يخب بإزائه ،

وما زالا هكذا حتى بلغا المدينة ، فرآى الناس ينحازون إلى عمر ويحيونه بتحية الخلافة ، فذهل وقال :

فهلاَّ أخبرتنى !

قال عمر : لا عليك يا أخى !

طرائف المعركة :

وقد حفلت هذه المعارك العنيفة بغرائب الوقائع فى البطولية والحمية العربية والمنافسة بين الفرسان فى الجلاد ، بل بين القبائل فى الشجاعة والثبات . ولو أن لدينا متسعا من المكان لسقنا منها طرائف نادرة وعجائب فريدة تشهد للعرب بباهر الصفات وبارع الشيم والأخلاق . اما والمقام لايتسع لذلك فإنا نكتفى بواحدة من هذه الطرائف على سبيل المثال !

الفارس الحبيس :

كان أبو محجن الثقفى فارسا عظيما وشاعرا مفلقا ، ولكنه كان ممتحنا بالخمر أو الغزل بها ، فكان إذا لم يشربها لا يفتأ يتغنى بها ، وحدث أن شربها مساء اليوم الذى كان جيشا العرب والفرس سيلتقيان صبيحته فى القادسية ، فأمر سعد بن أبى وقاص بوضع رجله فى القيد وحبسه .

فلما وقعت الواقعة واشتبك الفريقان ، سمع أبو محجن وهو في محبسه قَعْقَعة السلاح وصياح الحرب ، فبكى وأنشأ يقول :

كفى حَزَناً أن تردى الخيل بالقَنا
وأُترَكَ مشدودًا على وَثَاقِيا

إذا قُمتُ عنَّانى الحديدُ وغُلِّقَتْ
مصاريعُ من دونى تَصُمّ المناديا

وقد شَفَّ جِسمى أَنّنى كل شارق
أعالجُ كَبْلًا مُصْمتاً قد برانيا

فلِلّه دَرِّى يوم أتركُ مُوثَقاً
وتُذْهَلُ عنى أُسْرتى ورجاليا

حَبِيساً عن الحرب العَوان وقد بدت
وإعمالُ غيرى يوم ذاك العواليا[1]

وسمعت سلمى بنت أبى حفصة زوج سعد بن أبى وقاص بكاء أبى محجن وشعره ، فأطلّت عليه وسألته : فيم حُبِس ؟

(١) الحرب العوان : هى التى قوتل فيها مرة بعد أخرى وهى أشد الحروب ، والعواليا : الرماح .

فأخبرها انه رجل شاعر يتحدث كثيرا عن الخمر، ثم سألها أن تحل قيدَه وتعطيه فرساً وسلاحاً ولها عليه عهد الله وميثاقه إن لم يستشهد أن يرجع إلى مكانه من الحبس لتضع رِجْلَه فى القَيد، - وكانت قد شاهدت جولته على المسلمين - فأعطتْه ماطلب، فخرج إلى المعركة حتى إذا كان بإِزاء الميمنة كبَّر وحمل على الفرس فقصفهم قصفا، ثم برز بين الصفين يلعبُ برمحه، وحمل على صفوف الفرس فزحزحها. وهكذا دواليك يكرُّ الكرَّة ثم يعود إلى الفضاء الواقع بين الصفين ويلعب برمحه ويتحدى أعداءه!

وقال قائل المسلمين: مَنْ هذا الفارس العظيم، لئن كان الخضر يشهد الحروب فهو صاحب البلقاء[1]. وقال آخر لولا أن الملائكة لاتباشر القتال ظاهرا لقلنا هذا مَلَاكٌ بيننا!

وجعل سعد بن أبى وقاص يتأمل الفارس من مكانه المشْرف على المعركة ويقول: الطعْنُ طعْنُ أبى مِحْجَن والكَرّ كر البَلْقاء، ولولا حَبْس أبي محجن لقلت: هذا أبو محجن، وهذه البلقاء!

ولم يزل أبو محجن يقاتل حتى انتصف الليل وتحاجزَ الفريقان، فرجع إلى مَحْبسه ووضع القيد فى رجله، فذهبتْ سَلْمى إلى سعد وأخبرَته الخبرَ فدعا بأبى محجن وأطْلقه وشكره

(١) البلقاء: هى فرس سعد.

على حسن بلائه مع المسلمين فعاهده أبو محجن ان لايشرب الخمر ولايذكرها بخير فى شعره أبدا !

فتح المدائن :

مكث سعد بن أبى وقاص مكانه بالقادسية شهرين ، يعيد تنظيم جيشه ، ويكاتب الخليفة ويتلقى توجيهاته ، ثم سار إلى المدائن وهى مقر الملك وعاصمة كسرى فافتتحها وفر كسرى منها ، واستولى سعد على كنوز كسرى وذخائره وملابسه وجميع نفائس الملك التى ظل الأكاسرة يجمعونها قرونا من سائر أنحاء الدنيا ، وقدبدا لسعد أن يرسل هذه الأشياء كاملة إلى عمر ليرى المسلمين مبلغ ما فتحه الله عليهم،وكيف آلت إليهم هذه الكنوز الفاخرة. فلما رآها عمر قال : إن قوما أدوا هذا لأمناء !

فقال على بن أبى طالب : عففت فعفت الرعية .

واقعة جلولاء :

وعاد الفرس إلى أنفسهم وقد أكلها الحقد على العرب ، فنظموا صفوفهم وحشدوا خيرة ما لديهم من رجال وعتاد ، والتقوا بسعد مرة أخرى فى واقعة جلولاء ، وحاربوا المسلمين

بشراسة ومرارة ولكنهم باءوا بالهزيمة الساحقة . وكانوا يسمون هذه الواقعة فتح الفتوح ، وقد انتهت بإبادة دولة الأكاسرة فلم تقم لهم قائمة بعدها .

تخطيط الكوفة :

ولما أنهى سعد دولة الأكاسرة . اختط للمسلمين مدينة الكوفة وصار أميراً عليها من قبل عمر . ثم عزل عنها إثر شكاة أهلها منه . ولم يكونوا محقين فى ذلك ، وإنما هو تغير الأمور وتقلب النفوس ، ومن أجل ذلك نبه عمر على هذه المسألة وهو يحتضر فقال : إنْ أجمعَ القومُ على استخلاف سعد فذاك وإلا فليستشره من يلى الأمر فإنى لم أعزْله عن عجز أو خيانة !

وكان عمر قد عرض على سعد ان يعيده أميرا على الكوفة فأبى !

ولما استُخلف عثمان أقر سعداً على الكوفة مدة ثم عزله عنها !

سعد يعتزل الفتنة :

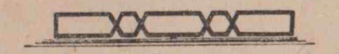
ولما نشبت الفتنة إثر مقتل عثمان اعتزلها سعد وأقام فى ضيعة له يرعى الغنم وأمر مَنْ حوله أن لا يرفعوا إليه من أمر الناس شيئاً !

وبينما كان فى ضيعته يوما إذ رأى راكباً مقبلا عليه . فقال :

اعوذ بالله من شر هذا الراكب ، وكان ابنه عمر فقال : يا ابت أرضيت ان تكون أعرابيا فى غنمك والناس يتنازعون فى الملك بالمدينة ، فضرب صدره ، وقال : اسكت ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » !

أى بُنَىّ ، أفى الفتنة تأمرنى أن أكون رأسا ! لا والله حتى أعطى سيفاً إن ضربت به مسلما نبا عنه ، وإن ضربت كافرا قتله !

وعُمِّرَ سعد حتى بلغ اثنين وثمانين سنة ، وكان آخر المهاجرين وفاة ، وذلك سنة ست وخمسين هجرية .



٧) زيد بن حارثة

هو زيد بن حارثة بن شُراحيل الكعبي : حِب[(١)] الرسول ﷺ ومولاه ، وأحدُ المسلمين الخمسةِ الأول من غير نزاع !

عربى يفقد حريته

وكان زيد بن حارثة أحد العرب من قضاعة ، فذهبت به أمه – وهو صبيّ – لزيارة قومها من طيء ، فأغار على الحى نفرٌ من بنى القَين وأخذوا زيداً فباعوه[(٢)] بمكة ، فاشتراه حكيمُ بن حِزام لعمّته السيدةِ خديجةِ بنتِ خُويلد ، فلما تزوجها الرسولُ الكريم وهبته له ، فأعتقه ، وكانت سنُّ زيد حينئذ حوالى العاشرة وذلك قبل النبوة .

زيد يؤثر محمدا على أبيه

واتفق أن حج ناسٌ من كلب فرأوا زيداً فعرفوه وعرفهم،

(١) حِبّ : أى حبيب ، وسترد على القارىء أثناء الترجمة الأسباب التى أدت إلى خصوصيته بهذا اللقب الكريم .

(٢) كان من عادات العرب قبل الإسلام أن العربى إذا أسر فقد حريته وصار عبدا وقد أبطل الإسلام ذلك .

فلما رجعوا إلى أهلهم اخبروا اباه بموضعه ، فخرج هو وعمه كعب حتى جاءا مكة ، وسألا عن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، فدُلاَّ عليه بالمسجد ، فدخلا عليه ، وقالا : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيّد قومه ، أنتم أهل حرم الله ، تَفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، جئناك فى ولدنا ، زيدٍ عبدك ، فامنُن علينا وأحسن فى فدائه !

قال : « وما ذاك » ؟

قالوا : زيد بن حارثة ، نريد شراءَه !

قال : « او غير ذلك .. ادعوه فخيّروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء » !..

قالوا : لقد زدتنا على النَّصف ! » .

وجاء زيدٌ فسأله الرسول الكريم : « هل تعرف هؤلاء » ؟

قال : نعم ! هذا أبى ، وهذا عمى ، قال :

« فأنا من علمتَ ، وقد رأيتَ صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما » .

فقال زيد : ما انا بالذى أختار عليك احدا ، انت منى بمكان الأب والعم !

فقالا : ويحك يا زيد ! اتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال : نعم إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحدا !

محمد يتبناه :

فلما آثر زيدٌ النبىَّ ﷺ على أهله تبناه وذهب إلى مجلس قريش بالمسجد ، فقال : « اشهدوا أن زيداً ابنى ، يرثنى وأرثه » !

ولما رآى أبو زيد وعمه ذلك طابت نفساهما ، وانصرفا عائدين إلى بلادهما !

وظل زيد يُدعى زيدَ بن محمد حتى جاء الإسلام ، ونزل قوله تعالى : « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فإنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُم فإِخْوَانُكُمْ فى الدِّين وَمَوَالِيكُمْ »[1] الآية ، رجع زيد إلى اسم أبيه حارثة ، ورجع كل من كان فى مثل حاله إلى الانتساب إلى آبائهم .

---

(١) سورة الأحزاب الآية رقم ٥ .

منزلته عند الرسول :

وكان زيد بن حارثة أثيراً عند النبي ﷺ ، وحسبه شرفاً قوله يخاطبه : « يا زيد أنت مولاى ومنى وإلىَ وأحبُّ الناس إلى ».

وقالت السيدة عائشة : ما بعث النبيُّ ﷺ زيد بن حارثة فى سَرِيَّة إلا أمّره عليهم ، ولو بقى لاستخلفه !

ولم يذكر فى القرآن أحدٌ من الصحابة باسمه غير زيد ابن حارثة ، إذ كان هو المعنى بقوله تعالى : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا »[1].

شهد زيد بدراً وأحداً وجميع المغازى حتى استُشهد ، ما عدا غزوة المريسيع ، فقد استخلفه النبى ﷺ على المدينة حين خرج إليها .

صفة زيد :

وكان زيدٌ رجلاً قصيراً شديد الأدمَة[2] فى انفه فطس ، وكان إلى ذلك شجاعَ القلب ، ثَبْت الجنان فى الحروب ، صادق الإيمان ، عظيم الهمة ، وقد رشحته هذه الصفات الكريمة

---

(١) سورة الأحزاب الآية رقم ٣٧ .

(٢) الأدمة : السمرة الشديدة .

للمنزلة التى انزله الرسول الكريم بها ، ولم يتفق لأحد من الصحابة أن رأس عددا من السرايا[١] والغزوات يقارب مارأسه زيد من ذلك ، فقد كان ما يكاد يعود من سريَّة حتى يتجهز لأخرى ، وهو فى ذلك قائد مظفر وفارسٌ منصور . ومازال هذا دأبه حتى استُشْهِد فى غزوة مُؤْتَة[٢] على نحو ماسنذكره بعد .

أحصينا فى كتب السيرة ست سرايا رأسها زيد بن حارثة يضاف إليها غزوة مؤتة التى ذهب أكثر المؤرخين إلى أنها غزوة لا سرية ، وذلك لكثرة عدد الجيش فيها إذ كان ثلاثة آلاف مقاتل ، ولأهمية الغرض منها ، إذ كانت أول محاولة لغزو الروم ، ولكثرة من استشهد فيها من الأمراء والصحابة .

غزوة مؤتة :

فى السنة السادسة من الهجرة بعث النبى ﷺ الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى أمير بصرى[٣] يدعوه إلى الإسلام ،

---

(١) السرايا : جمع سرية وهى تجريدة خفيفة من الجيش تندب لتحقيق غرض حربى ، وفى رأى لبعض المؤرخين أن الغزوة هى ما كان النبى على رأسها والسرية مارأسها غيره .

(٢) مؤتة : قرية على مشارف الشام .

(٣) كانت بصرى مدينة من مدن الشام .

فلما نزل مؤتة تعرض له شـرحبيل بن عمرو الغسانى أحد امراء قيصر على الشام فقتله، ولم يُقتل للنبى رسول غيره ، ولما بلغه الخبر اشتد الأمر عليه واعتزم تأديب ذلك الغادر الأثيم الذى خرج على تقليد العرب الكريم ، وهو تأمين الرسل ، ولكن تتابع الحوادث لم يمكن الرسول الكريم من تحقيق غرضه إلا بعد سنتين بعد ذلك .

فنى شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة جهز النبى ﷺ جيشاً عدته ثلاثة آلاف مجاهد ، وجعل على رأسه زيد ابن حارثة ، فإن أصيب فجعفر بن ابى طالب ، فإن اصيب فعبد الله بن رواحة ، واوصاهم ان يأتوا المكان الذى قتل به الحارث بن عمر ، ويدعو من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله تبارك وتعالى وقاتلوهم .

وخرج الرسول الكريم مشيعا لهم حتى ثنية الوداع ، فوقف وقال :

« اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا بالصوامع [1] معتزلين فلا تتعرضوا لهم ،

---

(١) إشارة إلى الرهبان .

ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانيا ، ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء » .

الروم يجمعون للجيش :

ومضى الجيش حتى أتى مَعَان من أرض الشام ، وهناك علم المسلمون ان الروم قد جمعوا لهم جيشاً عدته مائة ألف ، يرفده جيش من العرب المتنصرة يبلغ عدده خمسين ألف مقاتل .

ولما صحت لديهم هذه الأنباء تبادلوا الرأى فيما يفعلون : هل يناجزون العدو على الرغم من كثرة عدده وقلة عددهم ، وبعدهم الشاسع عن المدينة مركز إمدادهم ، أو يطاولونه حتى يرسلوا للنبى ﷺ بالواقع ليرى رأيه ؟

وقد حسم الخلاف موقف عبد الله بن رواحة أحد الأمراء الثلاثة وشاعر النبى ﷺ ، إذ قال : يا قوم . والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : ألا وهى الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنَيين: إما ظهور وإما شهادة ! . .

استشهاد الأمراء الثلاثة :

ونزلت هذه الكلمات بردا وسلاما على نفوس الناس ، وقالوا : صدق ابن رواحة ، وناجزوا العدو فى معركة لا تكافؤ فيها ، فقتل الأمراء الثلاثة واحدا إثر واحد ، ثم أخذ الراية خالد بن الوليد برأى جماعة المسلمين فانحاز بهم وخلصهم من إبادة شاملة كما هو مبين فى سيرته .

اللهم اغفر لزيد :

وبلغ النبى ﷺ الخبر ، فأطلع الصحابة عليه ، وعيناه تذرفان الدموع ، وقال : اللهم اغفر لزيد وكررها ثلاثا ثم قال : اللهم اغفر لجعفر ، اللهم اغفر لعبد الله بن رَواحة .

واستقبل النبى آل زيد ، فبكت بنت له ، فبكى الرسول الرحيم حتى انتحب ، فقال سعد بن عُبادة رئيس الخزرج : يا رسول الله ، ما هذا ؟

قال : « هذا شوق الحبيب إلى الحبيب ! » .

واستشهد زيد عن خمس وخمسين سنة .

٣) أبو عبيدة بن الجراح



عامر بن الجراح القهرى ثم القرشى ، ولقبه امين الأمة الإسلامية بشهادة النبى ﷺ .

لما أمدّ أبو بكر أبا عبيدة : وهو محاصر دمشق بخالد ابن الوليد قال له أبو عبيدة : تقدم فصلّ بالناس ، فأنت أحقّ بالإمامة ؛ لأنك جئت تمُدّنى !

فقال خالد : ما كنت لأتقدم رجلا سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

« لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح »

أمين هو أمين :

وجاء النبيَّ ﷺ أسقفا نجران (١) العاقب والسيّد ومعهما وفد من قومهما ، وكان الجميع نصارى جاءوا ليجادلوه فى الدين ، فلما عدلوا عن ذلك بعد ما شدهتهم الآيات البينات مالوا إلى المسالمة وذكروا للرسول الكريم أن بينهم خلافا على شىء ، واقترحوا عليه أن يبعث معهم رجلاً من المسلمين أميناً ليحكمَ بينهم !

---

(١) نجران : مدينة بالجزيرة العربية واقعة بين اليمن والحجاز .

فقال : « لأبعثن معكم أمينا حق امين » .

واستشرف كبار الصحابة يرجو كل واحد منهم أن يكون المعنِىَّ بهذا التشريف ، ولكنه قال :

« قم يا أبا عبيدة » !

صفة أبى عبيدة :

وكان أبو عبيدة رجلاً عظيما فى كل نواحيه ، صادقا زاهدا عفيفا متواضعا ، تكاملت عنده الأخلاق الفاضلة التى يمثلها المؤمن الصادق الإيمان ، ومن أجل ذلك قال الرسول الكريم فى حقه :

« ما من أحد من أصحابى لو شئتُ لأخذتُ عليه فى خلقه ليس أبا عبيدة بن الجراح » .

وسئلت عائشة : من كان احبّ إلى رسول الله ؟ قالت أبو بكر ثم عمر ثم أبو عبيدة بن الجراح .

وقال عبد الله بن عمر : ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها ، وأحسنهم خلقا ، وأشدهم حياء : أبو بكر وعثمان وأبو عبيدة بن الجراح .

يرشح للخلافة :

ورشحه أبو بكر للخلافة يوم سقيفة بنى ساعدة[1] ، فقال : اختاروا أحدَ الرجلين : عمر بن الخطاب أو أبى عبيدة ابن الجراح !

وقال عمر لجلسائه يوما : تَمَنَّوا ، فتمنَّوا ، فقال : لكنى أتمنى بيتاً مُمتلئا رجالا مثل أبى عبيدة بن الجراح !

عمر فى ضيافته :

قدم عمر الشام ، وأبو عبيدة أمير عليها من قبله : فتلقاه أمراء الأجناد ، فقال : أين أخى أبو عبيدة ؟ فقالوا : يأتى ، فجاء على ناقة مخطومة بحبل ، فسلّم عليه فقال عمر : اذهب بنا إلى منزلك ! قال ابو عبيدة . وما تصنع عندى ؟ ما تريد إلا أن تعصر[2] عينيك علىّ .

ودخل عمر منزل أبى عبيدة فلم يرَ شيئا من أثاث أو رياش ،

---

(١) هو اليوم الذى اجتمع فيه المسلمون إثر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لينتخبوا خليفة له .

(٢) تعصر عينيك : أى تبكى ، كما سيجىء بعد .

فقال : أين متاعك ؟ لا أرى إلا لبداً [١] وصفحة وشناً [٢] وأنت أمير ! أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة [٣] فأخذ منها كسيرات . . فبكى عمر !

فقال أبو عبيدة : قد قلت لك : إنك ستعصر عينيك عليّ يا أمير المؤمنين ، يكفيك ما يبلغك المقيل !

قال عمر : غيّرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة !

وليست هناك تعليق على هذا الحادث ابلغ ولا أكرم من ان عمر بن الخطاب هو نفسه الذى يقول هذا الكلام وهو أوحد الدنيا ، ونابغة الحاكمين زهدا وورعا وعدلا واستقامة !

الرجل المجاهد

سرية ذى القصة :

بعث النبي ﷺ أبا عبيدة فى اربعين رجلا إلى من بذى القصة ، فإنه بلغه أنهم يريدون الإغارة على المدينة ، فسار إلى غرضه ليلا ، ووصل إلى ذى القصة مع تباشير الصباح فأغار على القوم ففروا إلى الجبال ، فاستاق نعمهم وأسر واحدا منهم وجاء به إلى النبي ﷺ فأسلم فتركه .

(١) اللبد : البساط من صوف . (٢) الشنّ : القربة الصغيرة .
(٣) الجونة : القِدْر .

سرية الخبط : [1]

بلغ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن حيًّا من جُهينة على ساحل البحر الأحمر يقطع الطريق على المسلمين ، فأرسل إليه أبا عبيدة ابن الجراح على راس ثلثمائة مجاهد فيهم عمر بن الخطاب ، وزودهم بجراب من تمر ، فكان أبو عبيدة يعطى الرجلَ تمرة فى اليوم ، فكان الرجل يمتصها ثم يحتفظ بها ليمتصَّها مرة اخرى وهكذا ، وطال بهم المقام حتى نفد التمر فجاعوا حتى أكلوا الخبط .

ثم أرسل الله إليهم حوتاً ضخماً فأكلوا منه وشبعوا حتى سمنوا ، وأخذوا بعضه إلى المدينة عند عودتهم !

فاتح الشام :

لما استقر الأمر فى جزيرة العرب بعد هزيمة أهل الردة ، اتجه أبو بكر الصديق إلى الشام والعراق ، فعقد أربع الوية لأربعة أمراء ، وسيرهم جميعاً إلى الشام ، وحدد لكل أمير وجهته ورسم له خطته ، أما هؤلاء الأمراء الأربعة فهم :

أبو عبيدة بن الجراح ، ووجهته حمص .

وعمرو بن العاص ، ووجهته فلسطين .

---

(١) الخبط : ورق الشجر .

ويزيد بن ابى سفيان ، ووجهته دمشق .

وشُرحبيل بن حَسنَة ، ووجهته الأردن .

وسار الأمراء الأربعة إلى وجهاتهم ، وكان مجموع ما لديهم من الجند لا يزيد فى أقصى تقدير على اربعين ألف مجاهد .

الروم يحشدون جيوشهم :

ولما تسامع هرقل ملك الروم بأمر هؤلاء الأمراء وجيوشهم ، حشد لهم جيشا ضخما قدره المؤرخون بما لا يقل عن مائتى ألف مقاتل !

وجاءت أنباء الحشد الرومى إلى أمراء الجيوش من المسلمين وهم متفرقون : كل ماض إلى وجهته التى عينها لهم الخليفة ، فتراسلوا للتشاور ، فكان رأى عمرو بن العاص الاجتماع فى مكان واحد لمواجهة العدو ، وكان مما قال فى ذلك : « إن الراى الاجتماع ، وذلك أن مِثلنا إذا اجتمع لم يُغلب من قلّة » .

معركة اليرموك :

وكان أن اتّعدوا اليرموك (١) ليجتمعوا به ، وجاء رأى

---

(١) اليرموك : اسم نهر بفلسطين .

أبى بكر مؤيدا لرأى عمرو بن العاص ، وعلى هذا انحدر الأمراء إلى اليرموك ، وظل كل امير مستقلا بإمارة جيشه ، ثم كتبوا إلى الخليفة يستمدونه لقلة عددهم بإزاء حشد الروم، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يسير إليهم ويخلف على ما تحت يده من العراق المثنى بن حارثة الشيبانى .

ووافق قدوم خالد إلى حيث اجتمع الجيش الإسلامى قدوم باهان أمير الجيوش الرومية، وقد سير أمامه الرهبان والقساوسة يحضون الروم على القتال ، فتيمنت الروم بباهان ، وفرح المسلمون بخالد !

واقترح خالد بن الوليد على الأمراء توحيد القيادة ليلقوا الروم صفا واحدا ، على أن تكون كل يوم لأمير ، وطلب أن يجعلوا له اليوم الأول فى الإمارة فاستجابوا له[1] .

وتلاقى الجيشان تحت إمرة خالد فهزم الله الروم شر هزيمة وقتل منهم أكثر من مائة وخمسين ألف رجل .

القائد العام :

ومن الطرائف التى حدثت فى هذه المعركة أن بريد المدينة

---

(١) نشرنا هذه الواقعة مفصلة فى ترجمة خالد بن الوليد إذ كان موضعها هناك .

حضر قبل تلاقى الجيشين ، وهو يحمل كتاب عمر بن الخطاب بوفاة أبى بكر الصديق ، واستخلاف عمر ، وعزل خالد ابن الوليد عن إمارة الجيش ، وتولية ابى عبيدة بن الجراح ، فلما قرأ خالد الكتاب وضعه فى كنانته ولم يخبر أحدا بما فيه إلى أن انتهت المعركة بالنصر فذهب إلى ابى عبيدة وسلم عليه بالإمارة وناوله كتاب الخليفة . وقال يخاطب المسلمين : إن الخليفة أمّر عليكم أمينِ هذه الأمة !

فقال أبو عبيدة : سمعت رسولُ الله ﷺ يقول : « خالد سيف من سيوف الله ونعم فتى العشيرة » !

فتح دمشق :

قصدت فُلول جيش الروم إثر هزيمتها بمعركة اليرموك إلى دمشق فتحصنت بها ، وسار إليهم أبو عُبيدة بن الجراح فى جيشه ومعه أمراء الأجناد وخالد بن الوليد من غير إمارة ولكن له المكانة التى كان يحظى بها فى نظر أبى عبيدة وتقديره ، ومن اجل ذلك أقامه على رأس فرقة من الجيش على احد ابواب دمشق اثناء حصارها الذى طال قرابة ستة اشهر !

وكان خالد – كما وصفه أحد المؤرخين – لا ينام ولا يُنيم ،

دائب اليقظة شديد الحذر ، يرسل عيونه ويلتقط الأخبار ، فعلم ذات يوم أن للروم عيداً مقدسا يشربون فيه الخمر ويكثرون من اللهو والغفلة أثناءه، فأعد للأمر عُدته وهاجم أسوار المدينة من قبله ليلا حتى افتتحها عَنوة !

ولما رأى الروم ذلك سارعوا إلى الباب الذى يلى أبا عبيدة ففتحوه ، وعرضوا عليه الصلح ـ وهو لا يعلم بأمر خالد ـ فاستجاب لهم . وجاء خالد بعد أن أعطى أبو عبيدة كلمته للقوم فطلب إليه أن لا يقبل صلحهم لأنه فتح المدينة من قِبَله عَنوة ، ولكن أبا عبيدة أمضى كلمته ، وأتم الصلح مع القوم على المدينة كلها !

سمعته الخيرة عند أهل الشام :

ولئن كانت شهرة خالد الحربية قد سبقته إلى البلاد وتحدثت بها الأقاليم كلها ، فإن شهرة أبى عبيدة فى الحلم والرفق وسَعة الصدر وحب السلام قد سبقته كذلك إلى أهل الشام ، فأحبوه ويسّروا له مهمته ، وكان من أثر ذلك أن كثرت المصالحات بينه وبينهم ، وأن حُقنت الدماء واطمأنت النفوس ، ولولا كَلَب المملكة الرومانية وشدة حرصها على الاستمساك بالشام

لما لقى أبو عبيدة حربا تذكر من الأهلين ، بل رحبوا بعدله واستقامته ، وانحازوا إليه شاكرين له تخليصه إياهم من عسف الروم وظلمهم . ومن ضرائبهم الفادحة وتحكمهم الظالم المحرج ، واستعمارهم الآثم الفظيع !

فتح حمص وغيرها صلحا :

سار أبو عبيدة بعد فتح دمشق إلى حمص فصالحه اهلها على مثل ما صالح عليه أهل دمشق ، ثم قصد إلى بعلبك وحماة فخرج إليه اهلهما مسالمين مصالحين !

ومرّ أبو عبيدة بمعرّة النعمان ، فخرج إليه أهلها يلعبون بين يديه ، ويستقبلونه بالفرح والاستبشار ، فأجرى الصلح معهم على نحو الصلح الذى أجراه مع أهل المدن الأخرى .

فتح حلب وما جاورها صلحا :

وفتحت حلب على أبي عبيدة صلحا ، وكذلك فتحت قنسرين وانطاكية وجميع بلاد الشمال .

وفيما تمّ من فتح عواصم الشام الكبرى على يد ابى عبيدة ابن الجراح صلحا ، تأكيد للمعنى الذى اشرنا إليه آنفا من استراحة أهل الشام وأصحاب البلاد الأصليين إلى روح الإسلام ،

وسياسته البرّة المحسنة ، ومبادئه القويمة التى كان أبو عبيدة يمثّلها خير تمثيل !

فتح قنسرين :

أرسل أبو عبيدة بن الجراح خالد بن الوليد إلى قنسرين على رأس جيش لفتحها ، فدلف إليه الروم فى جيش كبير على رأسه القائد « ميناس » . وهو رأس الروم وعظيمهم بعد هرقل . والتقى الجيشان فى معركة عنيفة قتل فيها « ميناس » ، وثبت الروم حول جثته حتى أبيدوا كلهم ، وقد بلغ عدد هلكى الروم فى هذه المعركة عشرات الألوف .

وكان مع الروم عدد كبير من العرب المتنصرة وغيرهم من عبدة الأوثان ، فأرسلوا إلى خالد يقولون : إنه لا يدلهم فيما حدث ، وإنما هم عرب مثلهم حشروا بالقوة والإكراه مع الروم ، فقبل منهم عذرهم ، ولم يؤاخذهم على خروجهم عليه ، وقد أحسن صنعا إذ أنهم أسلموا كلهم وصاروا من خيار المجاهدين !

فتح أنطاكية :

وقصد أبو عبيدة إلى انطاكية ، وقد انحاز إليها جمع كثير من الروم ، بعد أن أصبحت أكبر مدينة لا تزال فى أيديهم .

فلما بلغ مهرويه ، وهى على بعد فرسخين من أنطاكية ، قابل حشدا للروم فهزمه ، وألجأه إلى المدينة ، ثم حاصرها فصالحه أهلها على الجزية ، وجلاء الروم الذين بها فقبل منهم ، وقد أعجبت شروط الصلح فريقا من الروم فقبلها وظل مقيما بالمدنية !

وبلغ أبا عبيدة أن هناك بين معرة مصرين وحلب جمعا للروم ، فسار إليهم وأوقع بهم وفض جيشهم بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة !

وجالت خيله حتى بلغت يوقا وفتحت قرى الجومة وسرمين وغيرها من القرى والدساكر وظل أبو عبيدة يتقدم والفتوحات تسير فى ركابه والنصر السلمى يتقدمه ، وأهل البلاد يهشون لمقدمه ، حتى بلغ الفرات ففتح رعبان ودلوك واشترط على أهلهما أن يبحثوا عن أخبار الروم ويكاتبوا المسلمين بما يقع إليهم منها !

واقعة مرج الروم :

عزّ على هرقل ملك الروم أن تخرج الشام من قبضته وأن يستقل بها العرب، فجمع جيشا كبيراً أمّر عليه تيودورا البطريق فسار حتى نزل مرج دمشق . فدلف إليه أبو عبيدة بن الجراح

ومعه خالد بن الوليد وغيره من أمراء الأجناد، حتى نزل إزاءه بمرج الروم ، وفى هذا اليوم نفسه وصل مدد إلى العدو بقيادة شنس الرومى يضاهى عدده عدد الجيش الأول ، فاصطف ابو عبيدة . ووقف بإزاء شنس ووقف خالد بإزاء تيودورا ، ولما كان صباح اليوم التالى ، اكتشف المسلمون أن تيودورا قد رحل بجيشه كله ولم يلبثوا أن علموا أنه ترك شنس وجيشه لإشغالهم ، وقصد إلى دمشق ليفتحها . فاتفق أبو عبيدة وخالد على أن ينسحب خالد بجيشه أثناء المعركة ليلحق تيودورا ،ويحول بينه وبين غرضه !

وسار خالد بجيشه حتى لحق تيودورا قريبا من دمشق ، فحمل على مؤخرته .وحمل المسلمون الذين كانوا على حامية دمشق على مقدمته ، وهكذا وقع بين شقى الرحا فقتل وابيد جيشه إبادة كاملة !

أما أبو عبيدة فقد هجم بجيشه على شنس فهزمه هزيمة منكرة ، وقضى عليه قضاء تاما . وكان نصر المسلمين عظيما فى هذه الواقعة ، ومغانمهم منها فوق الحصر !

أبو عبيدة محاصر :

فى السنة السابعة عشرة من الهجرة لم الروم شعثهم ، وجمعوا جيشا كبيرا ، وقصدوا إلى أبى عبيدة بحمص ومالأهم على ذلك أهل الجزيرة ، فاستدعى أبو عبيدة قواته المتفرقة إليه. وقدم عليه خالد بن الوليد من قنسرين، فاستشارهم : هل يناجز القوم أو يتحصن بالمدينة ويكتب إلى الخليفة يطلب مددا ؟ فكان من رأى خالد المناجزة ورأى غيره من الأمراء التحصن وانتظار المددوجنح أبو عبيدة إلى الرأى الثانى !

ولما بلغ عمر كتاب أبى عبيدة أهمه الأمر جدا ، فاستنفر أهل المدينة إلى الجهاد ، وأمر خيل النجدة [1] بالكوفة أن تبادر إلى نجدة أبى عبيدة ، وكتب إليه يواسيه :

«أما بعد : فإنه ما نزل بعبد مؤمن شدة إلا جعل الله بعدها فرجا : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [2] »

---

(١) كان عمر قد أعد فى كل مصر من الأمصار فرقا من الخيالة لاتشترك فى الحروب العادية، وإنما تنجد كل من وقع فى حرج من جيوش المسلمين، وكان عدد هذه الفرق بالكوفة أربعة آلاف .

(٢) الآية الأخيرة من سورة آل عمران .

ثم كتب إلى طائفة من القواد أن يُسيِّروا قواتهم إلى الجزيرة ، فقد كان أهلها هم الذين استثاروا الروم على ابى عبيدة : وأعقب ذلك بأن خرج هو مبادرا إلى نجدة أبى عبيدة بمن نفر معه من اهل المدينة ، وسار من المدينة حتى بلغ الجابية (١) .

ولما بلغ أهل الجزيرة مسير الجيوش إليهم من كل ناحية أهمّتهم أنفسهم ، فتخلوا عن الروم وتفرقوا إلى بلادهم .

ولما رأى أبو عبيدة انفضاض أهل الجزيرة عن الروم ، استشار خالدا فى الأمر فأشار بالخروج إلى الروم ومناجزتهم ، فعمل برأيه ، وخرج من المدينة فهجم على الروم هجمة صادقة زحزحتهم عن اماكنهم ، فتمكن المسلمون منهم ، وهزموهم هزيمة منكرة ، ونصرهم الله عليهم نصرا مؤزرا .

وقد وصلت أمداد الخليفة إلى أبى عبيدة بعد انتهاء المعركة ، ولكن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى عبيدة يوصيه بأن يشرك مُمِدّيه فى الغنائم لأنهم كانوا أحد أسباب نصره .

---

(١) مركز على مسيرة يوم جنوبى غرب دمشق .

طاعون عمواس[1] :

فى السنة الثامنة عشرة للهجرة انتشر الطاعون بالشام ومصر والعراق ، ولكنه استفحل بالشام . وقد قدر المؤرخون ضحاياه من الجيوش العربية المجاهدة بنحو ثلاثين ألف مجاهد !

ولما علم عمر بن الخطاب بأمر هذا الوباء الجارف ، كتب إلى أبى عبيدة يستقدمه ، ويقول له : « إنه قد عرضت لى حاجة ولا غنى بى عنك فيها فعجّل إلىّ .. وكان غرضه أن يبعده عن موطن الوباء ، ولكن أبا عبيدة فطن إلى قصده ، فاستعفاه وآثر الموت بين أصحابه . ولم تر فجيعة بين المسلمين بعد فجيعتهم برسول ﷺ وأبى بكر الصديق ، أشد وقعا عليهم ، ولا أكثر حزنا لهم من فجيعتهم بهذا الرجل الصادق الأمين !

قال مُعاذ بن جبل يبكيه :

إنكم فجعتم برجل ما أزعم والله انى رأيت من عباد الله قط أقل حقدا ، ولا أبر صدرا ، ولا أبعد غائلة ، ولا اشد حياء للعاقبة ، ولا انصح للعامة منه ، فترحموا عليه .

مات أبو عبيدة عن ثمانية وخمسين عاما .

---

(١) عمواس : أسم بلد بسهل فلسطين .

عمرو بن العاص
فاتح مصر



عمرو بن العاص السَّهمى من أذكياء قريش ودهاتها فى الجاهلية ، فلما أسلم فى السنة الثامنة الهجرية ، كان كما وصف به هو نفسه فى حديث إسلامه حيث قال : « فوالله ماعدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد — أسلما معا فى ساعة واحدة — أحداً من الصحابة فى أمرِ حربٍ منذ أسلمنا ، ولقد كنا عند أبى بكر بهذه المنزلة ، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة ، وكان عمر على خالد كالعاتب » .

اللواء الأول :

كان أول لواء عقد له فى الإسلام فى السنة الثامنة من الهجرة ، أرسله النبىّ صلى الله عليه وسلم رئيسا لسَريّة ذات السلاسل[1] . ليفرق جمعا لقضاعة كانوا يريدون غزو المدينة ، فلما قرب من مكان العدو ، علم أنه فى عدد كثير . وكانت سريته ثلثمائة مجاهد ، فأرسل يستنجد الرسولَ العظيم فأمدّه بمائتين من المهاجرين والأنصار برياسة أبى عبيدة بن الجراح وفيهم أبو بكر وعمر ،

(١) ذات السلاسل : اسم لماء وراء وادى القرى .

وأبى عمرو إلا أن يكون رئيسا للجميع فقبل أبو عبيدة رياسته ، وصلى خلفه .

والتقى الجمعان ، وكان العدو كثير العدد ، ولكنه جبن امام صدق عزيمة المسلمين ، فتفرق وولّى هاربا .

وأراد المسلمون أن يقتفوا أثر العدو فمنعهم عمرو ، وفى الليل اشتدّ البرد فأراد المسلمون أن يوقدوا ناراً يصطلون بها فمنعهم عمرو كذلك .

عمرو الحصيف :

فلما عاد عمرو إلى المدينة سأله النبىّ ﷺ عن هذين الأمرين فقال : كرهت ان يتّبعوهم فيكون لهم - أى للأعداء - مدد فيعطفوا عليهم ، وكرهت أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قِلَّتهم ! فحمِد الرسولُ الكريم حسنَ تدبيره .

هدم سواع :

وأرسله النبىّ ﷺ لهدم سُواع ، وكان صنما لهذيل يحجون إليه فى الجاهلية ، وتعظمه العرب معهم . فسار إليه فى جماعة من المسلمين ، فلما بلغه وأراد هدمه قال سادنه : إنك لاتستطيع ذلك !

فقال عمرو : وماذا يمنعنى ؟

— الصنم نفسه .

— حتي الآن أنت على الباطل !..

ثم أعمل المعاول فى هدم الصنم حتي حطّمه ، وقال للسادن بعد ذلك : كيف رأيت ؟ !

قال : أسلمت لله !

أبو بكر يؤمره :

ولى النبيّ ﷺ عمرو بن العاص على صدقات سعد هذيم وعذرة ومن لفّ لفّها من جُذامة وحَدَس وعلى عمان ، فلما تُوفىّ الرسول ﷺ كتب ابو بكر إلى عمرو يقول :

إنى كنت قد رددتك على العمل الذى كان رسول ﷺ ولاّكه مرّة وسماه لك أخرى ، مبعثك إلى عمان إنجازا لمواعيده ، وقد أحببتُ اباعبد الله أن أفرِغك لما هو خيرٌ لك فى حياتك ومعادِك منه إلا ان يكون الذى أنت فيه أحبّ إليك !

وكانت هذه الإشارة من أبى بكر ترشيحا لعمرو ليكون من بين قادة الأجناد الذين يعتزم تنصيبهم على الجيوش التى سيسيرها إلى الشام والعراق ، فكتب إليه عمرو يقول :

إنى سهم من سهام الإسلام ، وانت بعد الله الرامى بها والجامعُ لهـا ، فانظر اشدّها وأخشاها وأفضلها ، فارم به شيئا إن جاءك من ناحية من النواحى !

أمير فلسطين :

واختار أبو بكر عمرا لقيادة أحـد جيوشه الأربعة الذين وجههم لفتح الشـام — على نحو ما قدمنا فى ترجمة أبى عبيدة ابن الجراح — وكانت وجهة عمرو فلسطين ، وعدد جيشه أول الأمر ثلاثة آلاف ، ثم أخذ يزداد بإمدادات الخليفة حتى بلغ سبعة آلاف .

وقد افتتح عمرو بن العـاص غزّة وسبسطية ونابلس ولدّ ويبنى وعمواس وبيت جيرين ويافا ورفح .

فى اليرموك :

ولمـا جيّش هرقل ملك الروم جيوشه الكبرى لتصد المسلمين ، وتراسل امراء الجيوش الإسلامية الأربع ، نزلوا على راى عمرو بن العاص وهو التجمع فى مكان واحد باليرموك ليقابلوا الروم جبهة واحدة ، وعلى ذلك سار عمرٌو بجيشه إلى

مكان الاجتماع ، وكان من أمر هذه الموقعة الشهيرة ما سبق ان عرفه القراء فى سيرة أبى عبيدة .

فتح مصر :

حين انكسرت شوكة الروم بالشام ، وتم فتح معظم مدنه ، واستولى المسلمون على ثغوره وقلاعه ، ومَضَت فى ذهن عمرو ابن العاص فكرة فتح مصر ، فانتهز زيارة عمر بن الخطاب الشام فى السنة الثامنة عشرة الهجرية وعرضها عليه ، فتردد عمر إشفاقا على المسلمين ان يُورّطهم فى حرب فظيعة أخرى ، وهم لما تندمل جراحهم من حروب الشام .

ولكن عمرا بن العاص كان قوىّ الحجة رائع البيان ، فذكر لعمر بن الخطاب ان أريطون حاكم القدس الرومانى قد فرّ إلى مصر لما أيقن اتجاه أهل القدس إلى مصالحة المسلمين ، ولابد أنه يعمل على تجييش الجيوش بها لمعاودة حرب العرب ، والمصلحة تقضى بمداهمة مصر حتى لا يتسع وقت الرومانيين للحشد والتعبئة !

ومضى عمرو يهوّن الأمر على عمر فاقترح أن يسير إلى مصر فى اربعة آلاف مجاهد فقط ، فأذن له فى ذلك على تردّد ،

وأنهى إليه أنه سيرسل إليه أثناء قصده إلى مصر رسالة برأيه الأخير!

ويقول المؤرخون إن عمر لما رجع إلى المدينة استشار كبار الصحابة فى الأمر، وكان من بينهم عثمان بن عفان فاستعظم الأمر، وذكر أن فى عمرو بن العاص جُرأة وتهوّرا!

فعاد عمر إلى تردده وإشفاقه، ولكنه خشى أن لا تبلغ رسالته عمرا إلا بعد ان يكون قد دخل مصر، فيحدث رجوعه أثرا بالغا فى سمعة العرب والإسلام، فتوسط الأمر وكتب إليه: إذا بلغتك رسالتى قبل دخولك مصر فارجع، وإلا فسر على بركة الله.

عمرو الفطن:

وجاء رسول الخليفة عمرو وهو عند رفح، ففطن إلى ما تحتويه رسالة الخليفة من وقف الحملة، واستعان بدهائه المعروف فلم يأخذ الكتاب من الرسول حتى بلغ العريش، وحينئذ استدعاه وأخذ كتاب الخليفة ففضّه وقرأ ما فيه، ثم سأل أصحابه: أنحن فى مصر الآن أم فى فلسطين؟ فأجابوا:

نحن فى مصر ! فقال : « إذن نسير فى سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين » !

فتح الفرما :

كانت مدينة الفرما أول مدينة اشتبك فيها العرب مع الروم، وكانت محصنة وقد حاصرها العرب شهرا ثم دخلوها عنوة ، وقتلوا وأسروا من الرومان خلقا كثيرا، وولى الباقون الأدبار.

وقد روى المقريزى وأبو المحاسن أن قبط الفرما ساعدوا العرب على الروم فى هذه المعركة.

فتح بلبيس :

وسار عمرو بجيشه إلى بلبيس لايلقى معارضة ، وكانت هذه المدينة ذات حصون ومَنَعة ، وقد حشد فيها الروم جيشا ضخما وأرسل عمرو إلى المدينة يخيّر قادتها بين الإسلام أو دفع الجزية أو المناجزة : وأمهلهم أربعة أيام ليبعثوا بردّهم ، ولكن قائد المدينة الرومانى وهو أريطيون الذى كان قائدا للقدس اختار الغدر والخيانة على الاستقامة والسلامة ، ففى اليوم الثانى من المهلة بيّت المسلمين بجيشه ، ولكن الله نصرهم عليه نصرا مبينا ، فقتلوا من جيشه ألف رجل وأسروا ثلاثة آلاف أسير !

أم دنين :

ومكث عمرو ببلبيس شهرا يجُمّ فيه جيشه ويرسل عيونه لجمع الأخبار ويبعث كتبه إلى الخليفة يستمده بالجيوش . ثم سار قاصدا إلى حصن بابليون معقل الروم الأكبر وحرزهم الحصين ، فاعترضه الروم بأم دنين ولكنه فلّ جمعهم وهزمهم هزيمة منكرة !

أمداد الخليفة :

وفى هذه الفترة وصلت أمداد الخليفة من الجيوش ، وكان عددها ثمانية آلاف مجاهد فقويت شوكة المسلمين . وباء الروم بخذلان مبين .

حصن بابليون :

ربض المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل وبطريركها الرومانى الأكبر وقائد جيوشه تيودور فى حصن بابليون ، ومعهما صفوة الجيش الرومى ، ووقف عمرو بن العاص وجيشه أمام الحصن محاصرين إياه ودام الحصار سبعة أشهر ، حدث فى أثنائها أن أرسل المقوقس رسله إلى عمرو للمصالحة ، فاستجاب له عمرو على الشروط

التى ذكرناها قبلا وهى الإسلام أو الجزية فاختار المقوقس الجزية، وكتب إلى هرقل يستأذنه فى ذلك ، فلم يقبلْ منه ، بل حنق عليه ولامه لوما شديدا واستدعاه إلى القسطنطينية ثم نفاه .

فلما بلغ المسلمون ذلك تسوّروا الحصن فى الليل واشتبكوا مع الجنود فى قتال عنيف ، وكان أول من تسوّر الحصن الزبير ابن العوام ابن عمة رسول الله ﷺ ، وأحد أبطال الإسلام وأركانه العظام . فلما رأى الروم ذلك أذعنوا للصلح على شرط أداء الجزية فقبل منهم عمرو ذلك ، وخالفه الزبير بن العوام ، وقال : إنه كان على وَشْك فتح الحصن عَنوة . ولكن عمرا امضى الصلح على أن يخرجَ جند الروم من الحصن فى ثلاثة أيام، فينزلوا النهر ويحملوا مايلزمهم من القوت لبضعة أيام . أما الحصن ومافيه من الذخائر وآلات الحرب فتبقى غنيمة للمسلمين .

فتح الإسكندرية :

كانت الاسكندرية عاصمة مصر فى ذلك الزمن، وكانت مدينة انيقة ليس فى العالم كله مايضارعها رونقا وعمارة غير مدينة روما وهى إلى ذلك محصنة تحصينا قويًّا ، وقد انحاز إليها جيش

الرومان الذى جلا عن حصن بابليون والجيوش الأخرى التى كانت تحتل مدن الريف .

لم يمكث عمرو بن العاص بحصن بابليون طويلا ، بل اجتاز النيل ، قاصدا إلى الاسكندرية محاذيا له ، وقد افتتح فى طريقه جميع الحصون التى اعترضته ، ففتح مدينة نقيوس ، وقد كانت على شاطىء النيل الشرقى بالقرب من منوف . ولم يلق عناء فى فتحها ؛ إذ أن قائدها الرومانى ما كاد يسمع بقرب مجىء الجيش الإسلامى حتى فر إلى الإسكندرية ، ولما رآى جنوده قائدهم يهرب فعلوا فعله ونزلوا إلى السفن والقوارب يريدون الصعود إليها . فأدركهم الجيش الإسلامى وهم على هذه الحال فأفناهم عن آخرهم .

وواصل عمرو سيره إلى الاسكندرية وهو يدفع العدو دفعا أمامه ، فلما بلغ سنطيس ، وهى على بعد ستة أميال من مدينة دمنهور التحم مع جيش الروم فى موقعة عنيفة ، فهزمهم هزيمة منكرة .

موقعة كريون :

واستأنف عمرو بن العاص مسيره نحو الاسكندرية فلما خلف

سنطيس بعشرين ميلا وجد تيودور قائد الجيش الرومى قد اعترض طريقه عند حصن كريون على رأس الجيش الرومى كله ، فالتحم عمرو بن العاص معه فى معركة ظلت دائرة حوالى عشرة أيام . ثم نصر الله المسلمين على الروم نصرا مبينا . فانهزموا وولوا سراعا نحو الاسكندرية .

على أسوار الاسكندرية :

وواصل عمرو سيره بالجيش حتى بلغ الاسكندرية ، وضرب الحصار عليها وكان بها من الروم ما يزيد على خمسين ألف مقاتل . وجسّ القائد الإسلامى الأسوار فوجدها منيعة جدا ، فاكتفى بفرض الحصار . ثم أخذ يرسل السرايا لفتح المدن الواقعة فى دلتا النيل ، ثم سار بنفسه على رأس فريق من الجيش يفتتح حصون مصر السفلى ، فاخترق إقليم الغربية وبلغ دمياط ، واستغرقت هذه الرحلة حوالى سنة ، ثم قصد إلى حصن بابليون.

وحدث أثناء هذه السنة أن هلك هرقل راس الكفر ، ونشبت فتن صاخبة بالقسطنطينية إثر هلاكه ، وحكم من بعده ابنه قسطنطين ، ولكنه لم يعمر فهلك بعد مائة يوم من حكمه . وحكم من بعده أخوه هرقلوناس وتم فى أول عهده قرار

النزوح عن الإسكندرية بعد أن اقتنع مستشاروه أن لا امل فى الانتصار على العرب ، وعلى ذلك استدعى المقوقس من منفاه ، وفوض فى الصلح مع العرب فحضر إلى مصر وقصد إلى عمرو بن العاص فى حصن بابليون ، وتحدث معه فى الصلح وتسليم الاسكندرية واتفق الفريقان على ذلك وفيما يلى أهم الشروط :

١ — يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

٢ — تعقد هدنة مدتها أحد عشر شهراً .

٣ — يبقى العرب فى مواضعهم ، ويكفوا عن قتال الروم .

٤ — يرحل الجيش الرومى عن طريق البحر بأمواله ومتاعه .

٥ — يحترم المسلمون كنائس المسيحيين .

٦ — يرسل الروم مائة وخمسين جنديا وخمسين من الوجوه كرهائن لضمان تنفيذ شروط الصلح من جانبهم .

وقد قدرت الجزية بدينارين على كل رجل ما عدا الشيخ العاجز والولد الصغير .

إلى الخليفة :

أرسل عمرو بن العاص معاوية بن حديج إلى عمر بن الخطاب

ليبشره بالفتح ، ووافق بلوغه المدينة وقت القيلولة . فتحرّج أن يقلق الخليفة ، ودخل المسجد فرأته جارية لعمر وشاهدت ما عليه من وعثاء السفر ، فسألته عن اسمه فذكره وزاد بأنه قادم من مصر إلى الخليفة برسالة من أميرها فلما علم الخليفة بذلك استدعاه سريعاً . وسأل عن الأنباء : فقال : خيراً يا أمير المؤمنين ، فتح الله علينا الإسكندرية ، فقام عمر إلى المسجد ومعه معاوية ، وصلى صلاة الشكر ، واعتذر معاوية لعمر بأنه قد ظن عند وصوله أنه نائم فلم يُرد إزعاجه : فقال عمر :

بئس ما قلت وبئس ما ظننت ! لئن نمتُ النهار لأضيعن الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسى . فكيف بالنوم مع هذين !!

تعليقات على فتح مصر :

يلاحظ المتتبع تاريخ الفتوحات الإسلامية فى صدر الإسلام أن فتح مصر قد صاحبه يُسرٌ وتوفيقٌ أكثر مما كان من ذلك فى فتح الشام أو العراق ، مع أن مصر لم تكن أقل من الشام فى نظر الروم . فلم تحدث فيها معارك كبرى مثل اليرموك أو القادسية بل إن الروم أظهروا من الجبن والتنصل من

التبعات ما لم يحدث منهم مثله فى الشام. فما هو السرّ فى ذلك ؟

هناك أسباب عدة لهذه الظاهرة منها :

١ — جاء العرب إلى مصر وقد سبقتهم إليها شهرتهم فى الحروب ، وانتصاراتهم العظيمة فى الشام والعراق ، ففتّ ذلك فى عَضد جنود الروم المعسكرين بها ، وأدخل اليأس إلى نفوسهم، وتملكتهم عقيدة راسخة هى أن العرب لا يغلبون.

٢ — سبق مجىء العرب إلى مصر عهد تعصب دينى مفرط الشناعة ظل قائما نحو عشر سنين ، فقد أراد الروم أن يحملوا القبط على ترك مذهبهم الدينى واعتناق المذهب الرومى ، فلم يستجب لهم القبط ، فملأوا بهم السجون وأذاقوهم أشنع ألوان التعذيب والتنكيل !

ويقول المؤرخ الإنجليزى الدكتور « ألفرد . ح . بَتْلر » فى كتابه فتح العرب لمصر ترجمة الأستاذ فريد أبو حديد فى هذا الموضوع ما يأتى ، ص ٢٠٢ .

« ذكرنا من قبل أنهم ـ أى الروم ـ سجنوا فى أول الحصار [١] كثيرا من القبط الذين كانوا فى الحصن ، وذلك

(١) المراد حصار العرب حصن بابليون .

لأنهم ابوا أن يتركوا دينهم أو لأنهم رابهم منهم أمر ، فلما جاء يوم الفصح الذى كان فيه الخروج من الحصن جعله الروم يوم وقعة ونقمة من هؤلاء المسجونين التعساء ، فسحبوهم من سجونهم ، وضربوهم بالسياط ، وقطع الجند أيديهم » .

يفعل الروم هذا بالقبط يوم جلائهم الأبدى عن حصن بابليون ، وخروجهم منه إلى غير رجعة ، وكأنهم بذلك يصبّون جام غيظهم من العرب على القبط ، ويعدونهم والعرب سواسية فى العداء !

٣ — وهذا الموضوع يرشح لسبب آخر من أسباب خذلان الروم الشنيع فى مصر ، ذلك أنهم أحسوا منذ وصول العرب الفاتحين أنهم وحدهم أمامهم ، وأن لا أمل لهم فى عون أو مدد أو فى مسالمة من القبط فى هذا الظرف العصيب ، وبذلك حصروا أنفسهم بين جيش فاتح وشعب حاقد عليهم أشد من حقد الفاتحين أنفسهم !

وقد ثبت أن القبط كانوا كلما جلا الجيش الرومى من موقع من المواقع أو مدينة من المدن ، وضعوا أيديهم على المتخلفين منهم وقتلوهم .

توقيت وبيان :

١ — تم فتح مصر فى ثلاثة أعوام ، ابتدأت فى السنة الثامن عشرة للهجرة ، وانتهت فى سنة ٢١ .

٢ — بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط إثر رحيل الروم من الاسكندرية .

٣ — أعاد حفر خليج تراجان الموصل من مصر إلى البحر الأحمر لتنقل السفن المؤونة إلى الحجاز .

٤ — دخل فى الإسلام كثير من القبط والروم أنفسهم .

٥ — ذهب الدكتور « بتلر » صاحب كتاب فتح العرب لمصر إلى أن المقوقس بطريرك مصر الرومانى المدنى من قبل القسطنطينية أسلم سرا ، فقد جاء فى الصحفتين ٢٦٦ — ٢٦٧ من كتابه :

« وهذا يدل على أن الذين دخلوا فى الإسلام لم يكونوا كلهم من القبط ، فإن بعض من أسلم من كبراء القوم كانوا من الروم ، وإنا نكاد يداخلنا الشك فى أمر المقوقس وانه قد فعل ما فعل إذ كان يؤمن سرا بدين الإسلام » !

والرأى الذى ذهب إليه الدكتور « بتلر » جاء نتيجة

لما قرره بشدة فى كتابه من أن المقوقس خان بلاده بتسليم مصر إلى العرب من غير كبير قتال !

والذى نستطيع أن نقوله هو أن المقوقس كان من أول الأمر ذا علاقة طيبة بالإسلام ، وقد بدأها بإكرام الرسول الذى أرسله إليه النبى ﷺ فى السنة السادسة من الهجرة ليدعوه إلى الإسلام ، وإرسال هدية فاخرة إلى صاحب الرسالة من بينها ثلاث جوار ، إحداهن مارية القبطية أم إبراهيم بن النبى عليه الصلاة والسلام .

٦ — مات المقوقس أثناء المهلة التى كانت محددة لجلاء الروم عن الاسكندرية .

٧ — أراد عمرو بن العاص أن يتخذ الإسكندرية عاصمة لمصر كما كانت على عهد الروم ، ولكن عمر بن الخطاب لم يرتح إلى هذا الرأى خوفا على المسلمين من الغزو البحرى ، الذى كان يتوقعه من الروم .

٨ — أقر عمرو بن العاص بعض حكام الروم الذين أسلموا على المدن التى كانوا يحكمونها فى عهد الروم .

٩ — ذكرنا فيما مضى أن القبط تعرضوا لاضطهاد فظيع من قبل الروم لحملهم على ترك مذهبهم الدينى ، واتباع المذهب

الرومى ، وكان للقبط رئيس دينى عظيم اسمه بنيامين فرّ بدينه حين علم أن الروم له بالمرصاد ، وظل مختفياً عشر سنين حتى زالت دولة الروم وجاءت دولة العرب فحكى قصتَه أحدُ القبط لعمرو بن العاص ، واقترح عليه أن يؤمّنه ، فسارع عمرو إلى قبول هذا الاقتراح ، وأصدر المنشور الآتى :

« أينما كان بطريق القبط بنيامين ، نعده الحماية والأمان وعهد الله ، فليأت البطريق إلى هاهنا فى أمان واطمئنان ليلىَ أمر ديانته ويرعى أهل ملته » .

وما كاد بنيامين يسمع بهذا الأمان حتى خرج من مخبئه ، وجاء إلى عمرو فأحسن استقباله وجعله أميرا على قومه ، وجعل له ولاية أمر دينهم !

وقد فرح القبط بذلك فرحا شديدا . وعدوا يوم رجوع بنيامين إليهم من أعيادهم الكبرى !

فتح بَرْقَة وطرابلس :

أسرع عمرو بن العاص إثر استقرار الأمور بمصر إلى برقة ففتحها من غير عناء ، وفرض على أهلها الجزية ، ثم سار إلى طرابلس وكانت مدينة محصنة وبها جيش كبير من الروم. وظل

الحصار قائماً بضعة اسابيع ، إلى ان عرف القائد العربي الفطن أن المدينة غير محصنة من جهة البحر. فأرسل جماعة من المجاهدين اشتبكت مع الروم بين أسوار المدينة والبحر ، وتغلبت عليهم فسارع المدافعون عن المدينة إلى الفرار ونزلوا إلى المراكب ليهربوا ، ولما رأى الحراس مافعله الجيش هربوا بدورهم فدخل عمرو بجيشه المدينة من غير كبير عناء !

وبعد أن اقر النظام بطرابلس عاد إلى مصر .

ثورة الإسكندرية :

ظل عمرو بن العاص واليا على مصر طوال خلافة عمر ابن الخطاب وصدرا من خلافة عثمان بن عفان ، يقدره بعض المؤرخين بثلاث سنين أو أربع ، وحدث فى سنة ٢٥ من الهجرة أن رأى بقية الروم[١] بالاسكندرية أن حاميتها العربية قليلة العدد، إذ كانت ألف رجل ، فكتبوا إلى ملك الروم بذلك وزينوا له غزو مصر ومنّوه الأباطيل ، وكان لا يزال يحس ألم الطعنة التى تلقاها بخروج مصر من ملكه ، فجهز أسطولا ضخما قوامه

(١) سمح العرب لكثير من الروم غير المحاربين بالبقاء فى الإسكندرية بعد فتحها .

ثلثمائة سفينة مملوءة بالجنود والذخائر ، وسيره إلى الإسكندرية ، فلم تستطع الحامية الصغيرة بالمدينة أن تقاومه طويلا ، وعلى ذلك تم استيلاء القائد الرومى «منويل» على الإسكندرية .

وكان عمرو بن العاص بالحجاز . فلما بلغه الأمر عاد إلى مصر سريعا ، وأقام بالفسطاط يعد العدة لملاقاة الروم .

أما الجيش الرومى فإنه بعد الاستيلاء على الإسكندرية بطش بالأهلين من القبط بطشا شديداً، وجردهم من أموالهم وأملاكهم ثم سار فيهم هذه السيرة عند مغادرته الاسكندرية إلى الريف فى طريقه إلى الفسطاط .

وكان هناك رأيان لدى العرب : أولهما أن يسير عمرو إلى الروم ، وثانيهما أن ينتظر حتى يسيروا إليه وقد آثر الرأى الثانى وإن كان قد لام نفسه فيما بعد ، لأنه لم يكن يقدر نكاية الروم بالقبط على النحو الذى فعلوه

وبعد أن أتم عمرو استعداده خرج بجيشه لملاقاة الروم ، فوافقهم عند مدينة نقيوس[1] والتقى الجيشان فى معركة شديدة ، انتهت بهزيمة الروم هزيمة منكرة . وقد سارعت فلولهم إلى الاسكندرية فتحصنت بها .

---

(١) تقدم وصف موقع مدينة نقيوس فى هذه الترجمة .

نصر من الله :

ومن الوقائع العظيمة التي حدثت في هذه المعركة وعجلت بهزيمة الروم أن بطلا ضخما من ابطالهم، برز بين الصفين، وطلب المبارزة ، فلبى نداءه مجاهد عربى من أهل اليمن اسمه حومل ، وكان ضامر الجسم خفيف الوزن ، فأخذ يصاول العلج ويجاوله ثم التحم به فرفعه العلج من فوق سرجه ، فانتهز انشغاله بذلك واستل خنجرا كان فى منطقته وطعنه فى عنقه طعنة مميتة فخر صريعا ، وكبر المسلمون إثر ذلك وحملوا على الروم حملة صادقة فولوا الأدبار .

وسار عمرو إلى الإسكندرية حتى بلغها ، فوجد أسوارها منيعة فأسف لأنه لم يهدمها من قبل ، وحلف لئن كتب له النصر ليهدمنها حتى يسويها بالأرض[1] ، ثم ضرب الحصار على المدينة ، وفتحها بعد ذلك عنوة بواسطة معاونة بعض أهلها ممن كانوا يكرهون الروم ويحبون العرب ، فلما دخلها أعمل السيف فى الروم حتى أفناهم ، ولم تنج منهم إلا فلول ضئيلة ركبت البحر وسارعت عائدة إلى بلادها .

(١) برّ عمرو بيمينه بعد النصر

وقد عوض عمرو بن العاص القبط مما أصابهم من كيد الروم، وخاصة أنهم كانوا عونا كبيرا له أثناء رحلته من الفسطاط إلى الاسكندرية ، فكانوا يقيمون الجسور ويمدون الجيش بالطعام والأخبار .

عزل عمرو عن مصر :

بعد أن انتهت ثورة الإسكندرية ، واستتب الأمر من جديد فى مصر للعرب، عزل عثمان بن عفان عمرا عن مصر وولى عليها عبدالله بن سعد بن أبى سرح .

وقد عاد عمرو واليا على مصر مرة أخرى فى عهد معاوية ابن أبى سفيان ، وظل واليا عليها حتى مات سنة ثلاث واربعين هجرية ، وله من العمر حوالى تسعون عاما .



٥) خالد بن الوليد

سيف الله

كانت قريش فى الجاهلية توزع الوظائف العامة بها من اجتماعية وسياسية وحربية على بطونها ، وكانت وظيفة القُبَّة والأعنّة [1] فى بنى مخزوم ، ويليها خالدُ بن الوليد وراثةً عن أبيه الوليد بن المغيرة ، وقد اقتضته هذه الوظيفة ان يتمرّسَ بفنون الحرب ، ويتدرّبَ على أساليبها ، حتى يستطيع القيام بالمهمة التى عُهد إليه بها على أكمل وجه وأتمه ، ثم أعانه استعداده الفطرى للقيام بدور المحارب ، بل القائد على التبريز فى وظيفته ، ولولا ذلك لما كان للوظيفة فى ذاتها شأن يذكر ، ولما كان هناك مجال لظهور الأعمال الحربية العجيبة التى لاتصدر إلا عن عبقرية نادرة ونبوغ عظيم .

ومما يُزكّى موهبة العبقرية الحربية فى خالد ان البيئة القومية التى نشأ فيها ، وهى بيئة قريش ، لم تكن حربية ، فقد كانت قريش قليلة الحروب إذ كان العرب فى الجاهلية

---

(١) القبة : خيمة تضرب ويجمع فيها كل ما يجهز به الجيش من زاد وعتاد ، والأعنة : هى قيادة الفرسان فى الجيش .

يجلّونها ويعظمونها لقيامها على البيت الحرام ، واستقبالها إياهم بالسِّقاية والرِّفادة (١) أثناء نزولهم عليها فى موسم الحج .

وآخر حرب شهدتها قريشٌ قبل الإسلام هى حرب الفِجَار الرابع (٢) ، وقد شهدها النبىُّ ﷺ وكانت سنّه خمسَ عشرةَ سنة ، وكان ينبّل (٣) على أعمامه ، وكان خالد بن الوليد لمَّا يولد أو هو على التحقيق فى سنىّ طفولته الأولى !

وعلى ذلك يُعدّ كل ما بَهَر به خالد عالَمَ زمانه بل العالم كله حتى اليوم — من خطط حربية بارعة ، وأعمال عسكرية فائقة — من وحىِ عبقريته الخاصة ، ونِتاج فكره المتوهج بالذكاء والإشراق !

---

(١) السقاية : الموضع يتخذ لسقى الناس ، والرفادة ، ما كانت قريش تخرجه من أموالها وتعين به المنقطعين من الحجاج .

(٢) سميت هذه الحرب بالفجار لأن العرب فجروا إذ أقاموها فى شهر من الأشهر الحرم .

(٣) فسّر ابن إسحاق هذا التعبير بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرد على أعمامه نبل عدوهم إذا رموهم بها .

إسلام خالد :

أسلم خالد فى السنة الثامنة من الهجرة ، وقد أسلم بعد اقتناع فقد شاهد أمر الإِسلام يشتدّ وينتشر ، وأمر قريشٍ ينكمش وينحسر ، وكان النبىُّ ﷺ أثناء عُمْرة القضاء فى العام السابع الهجرى .

قال للوليد بن الوليد شقيق خالد : « أين خالد » ؟

فقال الوليد : يأتى الله به !

فقال الرسولُ الكريم : « ما مثل خالد من جهِل الإِسلام ، ولو كان جعل نكايتَه وجِدَّه مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ولقدّمناه على غيره » .

فكتب الوليد إلى أخيه بما تحدث به الرسول الكريم فى شأنه ، وختم كتابه بقوله : فاستدرك يا أخى ما فاتك ، فقد فاتتك مواطن صالحة !

وقد كان لهذا الكتاب وقع عظيم فى نفس خالد . فقضى على البقية الباقية من تردده ، واستقر عزمه على الإِسلام !

الهجرة :

وخرج خالد من مكة مهاجرا إلى المدينة ، ومعه عثمان بن طلحة

احد وجهاء بنى عبد الدار ، فلما كانا بالطريق العام لقيهما عمرو بن العاص ، فسألهما إلى أين ؟ فقال خالد : لقد وضح الأمر ، وإن محمداً لنبىّ :

فقال عمرو : لقد اتفقنا . فما جئت إلا لأسلم !

وسار الثلاثة حتى بلغوا ضاحيةَ المدينة ، فنزلوا ليصلحوا من أمرهم ، وعلم ـ بقدومهم ليسلموا ـ أهلُ المدينة ، ففرح النبىّ ﷺ بهم ، وركض الوليدُ يرحّب بأخيه خالد ومن معه ، ويقول لهم عجّلوا فإن الرسول ﷺ ينتظركم .

قال خالد : فأسرعنا المشى حتى أبصرت رسول الله ﷺ ينظر إلىّ مبتسما ، وما زال كذلك حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فردّ علىّ السلام بوجه طَلْق ، فقلت : أشهد ان لا إله إلا الله وانك رسول الله .

فقال :

« الحمد لله الذى هداك ، لقد كنت أرى لك عقلا رجوتُ أن لا يُسلمَك إلا إلى خير » .

فقال خالد : يا رسول الله ، ادع الله أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك . فقال :

« الإِسلام يجب [1] ما كان قبله » .

ثم تقدم عمرو بن العاص وطلحة فأسلما .

ذو الخلق العظيم :

وكان النبي ﷺ فى ذروة المثُل العليا فى كل شىء وخاصة فيما يتعلق بسياسة أصحابه ، وكان من أبرز خصائص هذه السياسة إهمال تاريخهم العدائى للإِسلام حتى كأنه لم يكن ، وقد كان خالدٌ حين طلب إلى الرسول الكريم أن يدعو الله ليغفرَ له المواطنَ التى شهدها على الإِسلام يحس ثقلا كبيراً على ضميره بما كان منه ، ولا سيما فى واقعة أحد ، فقد كان أشد قريش نكاية بالمسلمين ، ولكن النبي ﷺ طيب خاطره بأن الإِسلام يقطع سلسلة الحوادث ، ويبتدىء سلسلة جديدة لا صلة لها بما قبلها ، وهكذا لم تمض بضعة أشهر على إسلام خالد حتى سماه النبي ﷺ : سيف الله .

سيف الله :

فى السنة السادسة من الهجرة أرسل النبي ﷺ الحارث

---

(١) يجب : يقطع .

ابن عمير الأزدى بكتاب إلى امير بصرى يدعوه فيه إلى الإسلام ، فلما بلغ قرية مؤته [1] قابله شرحبيل بن عمرو الغسانى أحدُ أمراء قيصر على عرب الشام ، ولما علم بمهمته قتله . ولم يُقتل رسولٌ للنبى قبله فحزن لمقتله حزنا شديدا !

وبعد سنتين من هذا الحادث جهزّ النبى ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مجاهد لتأديب الغسانى الغادر وقومه ، وجعل على رأسه زيد بن حارثة ، فإن قتل فجعفر بن أبى طالب فإن قتل ، فعبد الله بن رُواحة ، وكان خالد بن الوليد احد أجناد هذا الجيش .

ولما وصل الجيش إلى مؤتة وجد العرب المتنصرة وهى المجاورة للشام ، قد نذروا به فتجمعوا للقائه ، وراسلوا ملك الروم ، فبعث إليهم جيشاً ضخما ، وتآزر الفريقان على قتال المسلمين .

مشاورة :

أما المسلمون فقد هالتهم كثرة العدوّ ، فتشاوروا : هل يناجزونه أو يطاولونه ويرسلوا إلى النبى ﷺ يستشيروه

---

(١) قرية على مشارف الشام .

ويطلبوا إليه أن يمدهم بجيش آخر ، وقد تغلب الرأى الأول فناجزوا العدو ، ولم يكن هناك أى تكافؤ فى العدد أو فى الظروف ، إذ كانت نسبة عددهم إليه واحدا إلى عشرين على الأقل ، وكان العدو يلاده تصله الأمداد كل ساعة ، ومن أجل ذلك قتل الأمراء الثلاثة واحدا إثر واحد .

ودفع المسلمون اللواء إلى ثابت بن أقرم الأنصارى فأخذه وأعطاه إلى خالد بن الوليد[1] ، فقال خالد :

لا آخذه ، أنت أحق به ، لك سن ، وقد شهدت بدرا .

قال ثابت : خذه أيها الرجل فأنت أعلم بالحرب منّى ، ووالله ما أخذته إلا لك ، ثم قال للناس : هل اصطلحتم على خالد ؟ قالوا : نعم !

خالد يرفع اللواء :

فأخذ خالد اللواء وحارب حربا لم يحارب مثلها فى حياته حتى اندقت فى يده تسعة أسياف[2] !

---

(١) تقدم هذا الوصف فى ترجمة زيد بن حارثة ولكن سياق الترجمة لخالد اقتضى إعادته ملخصا .

(٢) قال خالد بن الوليد يتحدث عن هذه الواقعة فيما بعد : لقد اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ولم تصبر معي إلا صفيحة يمانية (أى سيف يمنى) .

ومكث خالد سبعة أيام يحارب الروم ومن معهم من المتنصرة وهو فى كل يوم يعيد تعبئة الجيش على نظام جديد يوهم الروم أنه تلقى إمدادا جديدة ، ويتراجع به إلى الصحراء فى نظام ليظن العدو أنه يستدرجه إلى حربها ، حتى انصرف الروم ومن معهم ، وعاد خالد ببقية الجيش إلى المدينة ، ولولا ما بذله من براعة وشجاعة لما عاد احد سالما .

سيف الله :

وقد أخبر النبى ﷺ أصحابه بما حدث ، فقال ، وعيناه تذرفان الدموع : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبدالله بن رَوَاحة فأصيب ، ثم أخذ الراية خالدُ بن الوليد . نعم عبد الله واخو العشيرة وسيف من سيوف الله ، سلّه الله على الكفار والمنافقين ، من غير إمرة حتى فتح الله عليهم » .

أرسل النبى ﷺ خالدا فى حياته الشريفة رئيسا على بعض السرايا وداعية إلى اليمن ، وكان أحد اصحاب السرايات فى فتح مكة وهادما لصنم العزى أحد أصنام العرب المقدسة فهدمها وهو ينشد :

يا عزّ كفرانَك اليوم لا سبحانَك

إنى رايتُ اللهَ قد اهَانك

موقفه يوم حنين :

وكان على مقدمة الجيش يوم حنين فثبت حين كانت الجولة الأولى على المسلمين ، وقاتل قتالا شديدا وأصيب ببعض جراحات نافذة ، فلما انتصر المسلمون ، ذهب إلى رَحْله واستند إليه متألما من جراحه !

ولما بلغ النبيّ ﷺ بلاؤه وجراحُه ، سار فى الجيش وهو يقول : « من يدلّنى على رحل خالد » ، فلما بلغه ألفاه على الحال التي ذكرناها آنفا فَنَفَث على جراحه فأبراه الله منها على الفور ، ونهض سليما معافى !

بطل حروب الردة :

لما تُوفى رسولُ الله ﷺ ، ارتدّ معظم العرب ومنعوا الزكاة ، وتألّبوا على المسلمين ، وغزت جماعات منهم ضواحىَ المدينة ، وادّعى النبوة طُليحة الأسدى ، ومُسَيلِمة الكذاب ، وسَجاح التميمية ، والأسود العنسى ، واضطربت الجزيرة العربية

بالفتن والشقاق ، واشتد الأمر على المسلمين حتى اقترح عمر ابن الخطاب على ابى بكر أن يُصانعَ ما نعى الزكاة حتى يفرُغَ إلى المتنبئين والمرتدين ثم يعودَ إليهم ، ولكن أبا بكر غضب لله غضبا شديدا ، وأبى إلا أن يقاتل الجميع ، وقال قولتَه المعروفة ، وهى أنهم لو منعوه عِقالا كانوا يعطونه للنبى ﷺ لحاربهم عليه !

ونظر أبو بكر فيمن حوله من المسلمين فاصطفى منهم احدَ عشرَ رجلاً عقد لكل منهم لواء ، وسيره إلى جهة من جهات الفتنة .

وكان أظهر أصحاب الألوية والرجل الذى القى ابو بكر عليه الثقل الأكبر لهذه الفتنة ، وجعل تعويله عليه فى إخماد اكثر نواحيها اضطراما هو خالد بن الوليد ، فقد كلفه القيام بأمر الكذابين طُليحة ومُسيلِمةِ .

طليحة بن خويلد الأسدى :

أسلم طُليحة بن خُوَيلد الأسدى فى وفد من قومه ، ولكنه ارتدّ وادعى النبوة قبيل وفاة النبى ﷺ . فالتفت حوله قبيلته بنو أسد ، وشايعه عُيَينة بن حِصْن الفَزَارى رئيس غطفان ،

وكان رجلا ضعيف العقل فاسدَ التدبير ، أسلم وارتدّ أكثر من مرة ، فلما انشأ طُليحة كِذْبته الكبرى فادعى النبوة انحاز إليه كراهيةً للإسلام ، وتعاسة على قريش أن تذهب بمجد العرب فى الجاهلية والإسلام وحدها ، وقال : والله لإن نتبع نبيا من خلفائنا[1] خير من أن نتبع نبيًّا من قريش ، وقد مات محمد وبقى طليحة !

وسارع إلى طليحة آخرون ممن يركبهم الطمع فى مثل هذه الأحوال ، وغيرهم ممنّ ينعتون بأنهم أتباع كل ناعق حتى كثر سواده ، وانتشر أمره ، فلما عقد الخليفة اللواء لخالد أمره ان يبدأ به ، لأن بنى أسد وبنى غطفان ومن لف لفهما كانوا ينزلون قريبا من المدينة . وكان عُيينة بن حصن قد حاول غزوها فعلا !

موقعة بزاخة[2] :

سار خالد إلى حيث اجتمع جيش طليحة ببزاخة ، وكان من بركات الله أن قبيلة طيء انضمت إليه ، وأعانته بعدد كبير من

---

(١) كان بين غطفان وأسد حاف فى الجاهلية .

(٢) اسم موضع فى بنى أسد .

مجاهديها ، وكذلك انضم إليه كثير من المؤمنين الصادقين الذين ثبتوا على إسلامهم من القبائل الأخرى .

وهاجم جيش خالد بنى اسد وحلفاءها هجوما شديدا . وكان طليحة مُتَلَفِّفاً فى كِسـاء له بفناء بيت من شَعَر له ينتظر الوحى ، بينما رحا المعركة تطحن قومه طحنا !

طليحة ينتظر الوحى :

فلماعضّت الحرب بنابها بنى فَزَارة سارع رئيسها عُيَيْنَة إلى طليحة فقال : هل جاءك جبريل بعد ؟! قال : لا ! فرجع إلى المعركة ، فلما حمى وطيسها كرَّ على طُليحة ، فقــال : هل جاءك جبريل لا ابا لك ؟! فقــال : لا ! . قال : حتى متى ! قد والله بلغ منا ؟

ثم رجع إلى المعركة فقاتل إلى ان راى الخذلان فى قومه وبشائر النصر تلوح على جيش المسلمين ، فركض إلى طليحة ، فقال : هل جاءك جبريل ؟ قال : نعم ! قال : فماذا قال لك ؟ قال : إن لك رحاً كرحاه ، وحديثاً لا تنساه !

فقــال عيينة متهكما : أظن ان قد علم الله أن سيكون حديث لا تنساه ! . يا بنى فَزَارة . هكذا فانصرفوا ، فهذا الرجل

والله كذاب ، ثم لوى عنان جواده وفرّ هاربا .

فلما انصرف عُيينة بقومه ، ذهب بنو أسد إلى طُلَيحة ، يقولون : ماذا تأمرنا ؟ وكان طليحة قد أعدّ فرسا له وبعيرا لامرأته ، فركب الفرس وأجلس المرأة على البعير . وقال : من استطاع منكم أن يصنعَ هكذا فليفعلْ ، وانهزم جمعه على الأثر وتمكن منهم المسلمون .

ووقع عُيينة بن حصن فى يد المسلمين ، فأوثقه خالد وأرسله إلى ابى بكر . فجعل غلمان المدينة ينخسونه بالجريد ويقولون : أىْ عدوّ الله ، أكفرت بعد إيمانك ؟

فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط ؟

وهذا الرجل هو الذى وصفه النبىّ ﷺ بأنه الأحمق المطاع ، وقد قبل أبو بكر إسلامه ، وأطلق سراحه .

أما طُلَيحة . فقد عاد إلى الإسلام واختبأ طوال حياة أبى بكر فى بنى كلب فلما استُخلف عمر التحق بالمجاهدين فى فارس ، وأبلى فى المعارك بلاء حسنا ، وجاهد الفرس جهادا عظيما وقتل فى معركة نهاوند شهيدا .

ولما فرّ طلُيحة عاودَ بنو أسد الإسلام ، فقبل خالد منهم

ذلك ، إذ لم يكن أحب إليه وإلى الخليفة من أن يعود العرب إلى دينهم القويم !

وكتب خالد إلى أبى بكر بالفتح فردّ عليه يقول :

« ليزدك ما أنعم الله به عليك خيرا ، واتق الله فى أمرك فإن الله مع الذين اتّقوا والذين هم مُحسنون ، جد فى أمر الله ولا تنِيَنّ ، ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به غيره » !

خالد فى مالك :

كان مالك بن نويرة أحد زعماء بنى تميم ، وكان ممن جال فى الفتنة ومنع الزكاة ، وصانع سجاح ، ولكنه حين جلت سجاح عن بلاده وانتصر خالد بن الوليد على طليحة ومن معه ارعوى ففرق جيشه ، وقال يحدّث قومه : يا بنى يربوع ، إنا كنا قد عصينا أمراءنا ، إذ دعونا إلى هذا الدين وبطأنا الناس عنه فلم نفلح ولم ننجح ، وإنى قد نظرت فى هذا الأمر فوجدته يتأتى لهم بغير سياسة ، فإياكم ومناوأة قوم صُنِع لهم فتفرقوا إلى دياركم وأدخلوا فى هذا الأمر .

وجاء خالد بجيشه إلى البطَاح (اسم ماء لبنى يربوع)

وهو موطن مالك فلم يجد به احدا ، فارسل سرايا لتغزو أحياء بنى يربوع قوم مالك ، وأمرها ألا تبطش إلا بمن لا أذان لهم . وجاءت إحدى هذه السرايا بمالك بن نويرة وجماعة معه ، واختلف أفرادها فى مالك وصحبه ، فقوم يقولون إنهم سمعوا أذاناً ، وآخرون ينكرون ، فأمر خالد بحبسهم ، وكان الوقت شتاء ، والليلة باردة جدا ، فأمر منادياً فنادى : أدفئوا أسراكم! وكانت هذه الكلمة فى لغة كنانة تعنى : اقتلوهم! فقتلوهم . وسمع خالد الضجيج ، فخرج وقد فرغوا منهم . وسأل عن سبب قتلهم فذكروا التأويل الذى أسلفناه . فقال : إذا أراد الله امرا أصابه !

وكان من الممكن أن يمرّ هذا الحادث على علاته من غير حرج شديد لخالد ، لولا أنه خطب امرأة مالك ليتزوجها ، فجعل من نفسه غرضا لقالة السوء بهذا السبب . وكان أشد الناس تحاملاً عليه عمر بن الخطاب ، فطلب من ابى بكر عزله ، فأبى ! وقال : لا يا عمر !. ما كنت لأشيم[1] سيفاً سلّه الله على الكافرين ، هل لكم عليه اكثر من أنه اجتهد فأخطأ ؟!

ثم أرسل أبو بكر إلى خالد : ان اقدم علىّ ، فقدم وادلى

---

(١) أشيم : أغمد .

بحجته فصدقه وعذره، ولكنة عنّفه فى مسألة التزويج ، وأمره بالعودة إلى مكانه من الجيش .

إلى مسيلمة الكذاب :

بعد أن انتهى ابو بكر من النظر فى مسألة مالك ابن نويرة مع خالد ، أمره بالتوجه إلى كذاب بنى حنيفة ، وضمّ إليه المهاجرين والأنصار ، وكتب إلى بعض أمراء الأجناد أن يلحقوا به حتى يتعاونوا جميعا على التخلص من ذلك الكذاب الأشر .

وكذاب اليمامة اسمه مُسْيلمة بن ثمامة بن كبير من بنى حنيفة وكان من المعمّرين ، حتى لقد كان يقال إنه كان معروفا قبل ولادة عبد الله بن عبد المطلب والد النبى ﷺ ، وقدر عمره حين قتل بمائة وخمسين سنة . وكان يسمى نفسه الرحمن .

وجاء مُسيلمة مع وفد بنى حنيفة إلى النبى ﷺ فأسلم ، وكان بيد الرسول الكريم عَسِيب[1] من سعف النخل ، فسأله مسلمية أن يجعلَ له الأمر من بعده فأبى عليه ذلك ، وقال : « لو سألتنى هذا العَسِيب ما أعطيتكه » .

---

(١) العسيب : جريدة النخل .

ولما رجع مُسَيْلمة إلى موطنه ارتد ، وادعى النبوة وجاء قومَه بسجع مثل سجع الكهان ، وأخذ يأتيهم بأمور من الشعوذة ، فالتفوا حوله طمعا ان يكون لهم مجد كمجد قريش . وقد زادهم افتتانا بصاحبهم أن رجلا منهم اسمه الرَّحَّال ابن عُنْفُوة ، كان قد أسلم وتفقه فى الدين ، فأغواه مُسيلمة حتى شهد له أن محمدا ﷺ أشركه فى الأمر ، فنزلت هذه الشهادة على قلوبهم بردا وسلاما .

وكان مسيلمة يعتزّ بهذه الشهادة الكاذبة ، إذ كان يوهم البسطاء بها أنه نبيّ مرسل بشهادة محمد نفسه ولذلك كان ينادى فى اذانه أن محمدا رسول الله ، وأن مسيلمة رسول الله ، ويقول : « لقريش نصف الأرض ولبنى حنيفة نصفها » .

ولما مات النبي ﷺ وارتدت الجزيرة العربية وظهر مُسيلمة ، والتفت حوله بنو حنيفة ، وانحاز إليه كثير من شُذّاذ الأعراب حتى أصبح فى أكثر من أربعين ألف مقاتل . وكانت بلاد بنى حنيفة محصنة ذات منعة شديدة ، وهم أنفسهم أهل قتال وشراسة ، وأولو بأس شديد . ومن أجل ذلك يقول المؤرخون جميعاً إن المسلمين لم يقاتلوا قبل موقعة اليمامة قتالا

أعنف ، ولا قابلوا اناسا أشرس ممـا امتحنوا به من ذلك فى هذه المعركة .

ويـكفى للتدليل على صحة ما نقول : إن عدد الصحابة الذين استشهدوا فى هذه الواقعة ١٢٠٠ شهيد ، منهم أكثر من ٣٠٠ من المهاجرين والأنصار .

وكانت المعركة من العنف إلى حد أن بنى حنيفة أزاحت فى إحدى كراتها المسلمين عن أماكنهم واكتسحوا سرادق خالد ابن الوليد نفسه . فبرز خالد بين الصفين ، وانتحى ، وطلب المبارزة ، ولم يبرز إليه أحد إلا قتله ، ولـكنه كان يريد مسيلمة فناداه باسمه وحوله فرسان أشداء يحيطون به من كل جانب ، وأراد خالد أن يستدرجه ليصيب منه غفلة ، فيقتله ، ومن اجل ذلك أوهمه أنه يريد التفاهم معه على المناصفة التى اختارها بينه وبين قريش فقال له : إن قبلنا النصف فأى الأنصاف تعطينا ؟ وأخذ مسيلمة يفـكر فانتهزها خالد وهجم عليه ، ولـكنه ولى مدبرا ، وكان وحشى[1] الحبشى (قاتل حمزة بن عبد المطلب

---

(١) أسلم وحشى وقبل النبى صلى الله عليه وسلم إسلامه وطلب إليه أن لايساكنه فى بلد . ثم التحق بالمجاهدين ولما قتل مسيلمة قال أرجو أن تـكون هذه بتلك .

فى واقعة أحد) له بالمرصاد فرماه بحربته المشهورة فنفذت فى بطنه ، وضربه أحد الأنصار بسيفه فاجهز عليه ؟.

رجل فدائى شجاع :

وتراجعت بنو حنيفة فدخلت حديقة ذات سور منيع ، فقال البَرَاء بن مالك الأنصارى : أيها المسلمون ، احملونى على الجدار حتى تطرحونى عليه ، فأبوا أن يلقوا به إلى التهلكة فأقسم عليهم ففعلوا ـ وكان فارسا عظيما ـ فلما نزل فى الحديقة قاتل المشركين حتى زحزحهم عن الباب وفتحه ودخل المسلمون على الأثر ، واشتد القتال وحمى الوطيس ، وتخاذل بنو حنيفة إثر سماعهم بمقتل مسيلمة فانهزموا هزيمة شنعاء ، وبلغ قتلاهم فى هذه المعركة أكثر من عشرين ألف قتيل(١) .

خدعة أريب :

قبيل موقعة اليمامة أسرت خيل لخالد مُجَّاعة بن مرارة سيد بنى حنيفة ومعه اربعون رجلا ، فأمر خالد بضرب اعناقهم فقال له آخر رجل قُدِّم ليُضرب عنقهُ : أيها الرجل إن

(١) الطبرى ، الجزء الثانى ، ص : ٥١٦ .

كنت تريد بهذه القرية (يقصد قرية بنى حنيفة) خيراً أو شراً فاستبق هذا الرجل (أى مُجّاعة) ، فاستبقاه خالد مكتوفا فى سرادقه .

فلما هزمت بنو حنيفة قصدت فُلولهم إلى الحصن فتحصنوا به ، فقال مُجّاعة لخالد : هلم أصالحك على قومى ، فأملى خالد عليه شروط الصلح وهى الاستيلاء على الأموال كلها من ذهب وفضة والسلاح ، وسبى نصف مافى الحصن . فقال مُجّاعة : أذهب فأفاوضهم فأذن له خالد بذلك .

وذهب مُجّاعة وهو يعلم أن ليس بالحصن عدد يذكر من المقاتلين ، فأمر النساء بلبس الحديد ووضع المغافر[1] على رؤوسهن ، وأمرهن أن يتراءين للمسلمين من بعد . فنظر خالد ومن معه إلى خلق عظيم مجلل بالحديد فهالهم ذلك .

ورجع مُجّاعة فقال إن القوم لم يرضوا بالشروط التى عرضتها . ولكن إن شئت قبلت ربع السبى فقط . فقبل خالد نظرا لما كانت عليه حال المسلمين من الإجهاد وما أثخنوا به من الجراحات .

---

(١) جمع مغفر ، وهو غطاء الرأس الحديدى فى الحرب .

ولما أبْـرِمتْ شروط الصلح فتح مُـجّـاعة الحصن ، ودخله المسلمون فلم يجدوا به عددا يذكر من المحاربين وعلموا بالحيلة التى دخلت عليهم ، فقال خالد لمُـجّـاعة : ويحك . خدعتنى ! .. فقال : قومى . ولم أستطع إلا ماصنعت ! ..

وأمضى خالد الصلح وأغضى عن فعلة مجاعة وحملها على بر الرجل بقومه .

خالد فى العراق :

اقام خالد باليمامة زمناً يُـجِـمّ جيشه ويرسل سراياه إلى القبائل المجاورة تتعهدها وتأخذ صدقاتها ، وفى اوائل السنة الثانية عشرة من الهجرة أرسل إليه أبو بكر يؤمّـره على من بالعراق من رؤساء الأجناد ، ويطلب إليه أن يدخلها من أسفلها قريبا من المـكان التى بنيت عليه البصرة فيما بعد . فأرسل خالد إلى أولئك الرؤساء أن يوافوه فى زمان عيّـنه بالمـكان الذى حدده الخليفة ، ثم دلف إلى العراق ومعه ألفان من الجند بعـد أن ارفضّ عنه من لم يرد أن يصحبه فى وجهته الجديدة ، كما تقدم إليه أبو بكر فى هذا الأمر ، وقال له ولِـعياض بن غَـنْـم أحد

أمراء الأجناد — واذنا لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمتكاره » .

وأخذ خالد يضم إليه المجاهدين منذ مسيره من اليمامة إلى العراق فحشر منهم معه ثمانية آلاف ، وبذلك أصبح جيشه عشرة آلاف مجاهد ، ولما قدم إليه أمراء الأجناد الأربعة الذين كانوا قبله بالعراق أصبح عدد الجيش كله ثمانية عشر ألفاً !

واقعة كاظمة :

ولما علم الفرس بمقدم خالد وجيشه إلى العراق . وجهوا إليه قائداً خبيثاً اسمه هرمز ، وكان معروفا عند العرب أنه أشد الفرس عداوة لهم ، وأقبحهم جوارا حتى ضربوا به المثل فقالوا : أخبث من هرمز !

وكان اللقاء بكاظمة وقد سبق هرمز العرب إليها ، ونزل على الماء ، فلما جاء خالد ، وعرف ذلك لم يباله ، وقال : انزلوا ثم جالدوهم على الماء فلعمرى ليصيرن الماء إلى أصبر الفريقين وأكرم الجندين !

مؤامرة على خالد :

وعبأ هرمز جيشه ، وقرن الجنود بالسلاسل لكيلا يفر

احدهم : كل عشرة فى سلسلة واحدة وجعل الفيل على المقدمة ، ثم انفتقت طبيعته الخبيثة عن مكيدة غادرة دبرها لخالد ، فاتفق مع كوكبة من خيرة فرسانه على أنه سيبارز خالدا فإذا التحم معه بادرت هذه الكوكبة إليه فقتلته !

وخرج هرمز بين الصفين فطلب خالدا إلى المبارزة — وكان هذا الأمر أشهى الأمور إلى خالد وأحبها عنده — فخرج إليه مبادرا وجاءه بما لم يحتسبه ذلك أنه التحم به وحضنه وشرع يقتله ، وفى هذه اللحظة هجمت الكوكبة المُعدّة للغدر على خالد ورأى القَعْقَاع بن عمرو أحد فرسان العرب الأمجاد غدر الفرس ، وخروجهم على قوانين القتال ، فهجم ومعه نفر من أصحابه ، ليواجهوا جماعة الفرس ، ولكن خالدا كان فى شغل عن هذا كله فلم يترك هرمزا حتى قتله قبل أن يصل إليه الغادرون !

وعلى إثر ذلك هجم خالد والجيش العربى على الفرس هجمة صادقة ، فهزموهم شر هزيمة ، وكان قتلهم بالجملة بسبب قيدهم بالسلاسل واستحالة الفرار عليهم فقد كانت السلسلة الواحدة تزن حمل بعير !

نصر ساحق :

يقول المؤرخ الكبير الإمام محمد بن جعفر الطبرى : « ان خالدا لقى أول ما لقى من الفرس بالكواظم ، ثم نزل الفرات فلم يلق كيدا وتبحبح[1] بشاطىء دجلة ، ولم يلق بعد هرمز احدا إلا كانت الواقعة الآخرة أعظم من التى قبلها » .

قابل قائد الفرس الكبير قارن بالمذار فهزم جيشه وقتله ، وبلغ عدد القتلى من الفرس فى هذه الواقعة ثلاثين ألفا غير من غرق ، ولم يفلت من الجيش إلا عراة وأشباه العراة !

وقابل القائد الفارسى « الأندر زغز » بالولجة ، ونصب له كمينين داهما الفرس اثناء المعركة فانهزموا ، ومضى قائدهم هائما على وجهه حتى مات عطشا ؟

وقابل جيش جابان باليّس ، وكانوا قد نصبوا الموائد ، فلما رأوا العرب استهانوا بهم ، وتظاهروا بأن ليس لهم من الشأن ما يعجلهم عن تناول طعامهم . وقالوا نأكل اولا ثم نقاتلهم بعد . فهجم عليهم خالد بجيشه ، وحارب الفرس ، والحقد يملأ صدورهم على العرب ، ولكن الله نصر العرب

---

(١) تبحبح بالمكان : تمكن منه .

عليهم ، فقتلوا منهم عشرات الألوف ، ثم اكلوا طعامهم بعد أن فرغوا من قتالهم .

وسار خالد يفتتح سواد العراق ويهزم كل جيش يلقاه ، وحاصر الحيرة حتى افتتحها ، ومازال هذا شأنه حتى استخلص للعرب سواد العراق كله الواقع شرق الفرات .

خالد يحج سرا :

وحدث إثر واقعة الفراض ، وقد قتل فيها من الفرس مائة ألف ،أن امر الجيش بالمسير إلى الحيرة ، واوهم جنوده انه سائر خلفهم ، ثم خرج حاجا وتعسف الطرق وسابق الزمن حتى حج ورجع فلحق بمؤخرة الجيش قبل أن تبلغ الحيرة .

وقد علم ابو بكر بحج خالد فعتب عليه لتركه الجيش بغير إذنه ، وكتب إليه يأمره بالمسير إلى الشام لنجدة جيوش المسلمين باليرموك ويقول له :

«وإياك ان تعودَ لمثل ما فعلت ، فإنه لم يُشْجِ (١) الجموعَ من الناس بعون الله شجيُك ، ولم ينزع الشَّجْى من الناس نزعك ،

---

(١) شجاه : حزنه وطرّبه كأشجاه ، فهما ضد ، وأشجاه : قهره وغلبه ، والشجو : الحاجة (القاموس المحيط) .

فليُهنك ابا سليمان النيّة والحظوة ، فاتمْم يتمّ الله لك ، ولا يدخلك عُجب فتخذل ، وإياك أن تُدِلّ بعمل فإن الله له المنّ وهو ولى الجزاء .

خالد فى الشام :

كان أبو بكر الصديق شديد الإعجاب بخالد بن الوليد حسن الرأى جدا فى كفايته الحربية ، ومن أجل ذلك عهد إليه – كما قدمنا – بحرب الكذابين طليحة ومسيلمة ، وسيره بعد فراغه منهما إلى العراق ، فكسب كل المعارك التى خاضها ، وهزم كل القواد الذين قابلهم ، وقتل أكثرهم ، وهرب سائرُهم ، وأرسل المغانم إلى المدينة حتى بهرها بكثرتها ونفَاستها ! وقال ابو بكر مبتهجا ومباهيا بخالد :

يامعشر قريش ،عدا أسدُكم على الأسد فغلبه على خراذيله[1] أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد !

ولما ارسل امراء الأجناد بالشام إلى أبى بكر يخبرونه بتجمع جيوش الروم عليهم باليرموك ، ويذكرون كثرة عددهم

(١) خرذل اللحم : قطع أعضاءه ، وخرذل : لغة فى خردل (القاموس المحيط) والأسد الثانى فى كلام أبى بكر : كناية عن فارس .

ويطلبون أن يرسل الأمداد إليهم ، قال : والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

ثم كتب إلى خالد يأمره بالسير إلى الشام لنجدة جيوشها – على نحو ما أسلفنا من ذلك – فاستخلف خالد المثنى بن حارثة الشيبانى على العراق ، وأخذ معه نصف الجيش ، واخترق الصحراء الفاصلة بين العراق والشام فى خمس ليال ، فحقق بذلك ما يشبه المعجزة ، وجاء بعمل حربى لا نظير له فى التاريخ ، ولما بلغ الشام أخذ يفتح البلاد التى يمر عليها عنوة أو صلحا ، وكانت شهرته الحربية قد سبقته إلى تلك البلاد ، فلم يكن يلقى مقاومة تذكر .

قائد معركة اليرموك :

ولما بلغ اليرموك وهو مكان تجمع جيوش المسلمين والروم ، درس الموقف ، فلم يرتح إلى حال المسلمين ، ذلك أنه ألفى كلَّ أميرٍ مستقلاًّ برياسة جيشه ، ووجد الروم جيشا واحدا يقوده رجلٌ واحد ، فأهمه ذلك . وقال يخاطب أمراء الأجناد وهم أبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان :

« إن هذا يوم من ايام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظامٍ وتعبئة على تساند[1] وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى ، وإن من وراءكم[2] لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الراى من واليكم ومحبته !

قالوا : فهات ، فما الرأى ؟ .

قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ، ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم ، إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله ! فقد أفرِد كل رجل منكم ببلد من البلدان[3] لا ينتقصه منه إن دان لأحدٍ من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه إن دانوا له ، هلموا فإن هؤلاء

---

(١) على تساند وانتشار . التساند هنا معناه : أن كل أمير من أمراء الأجناد كان مستقلا عن غيره فى إدارة جيشه ، وخالد هنا يدعو إلى توحيد القيادة .

(٢) يقصد بهذه العبارة الخليفة أبا بكر .

(٣) يشير خالد بهذه العبارة إلى أن كل أمير كان معينا على جهة من جهات الشام .

وقد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده ، إن رددْناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردّهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها .

فهلموا فلنتعاور[1] الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غدا ، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعونى اليكم اليوم . . . فأمرّوه .

وبادر خالد فعبأ جيش المسلمين تعبئة لم ير العرب مثلها لا فى الإسلام ولا فى الجاهلية ، ذلك أنه عمد إلى تقسيم الجيش كراديس[2] كل كردوس ألف رجل وجعل على كل واحد منها رجلاً شديد البأس ، بارع الرأى فى أمر الحرب .

وكان عدد جيش المسلمين فى أكثر تقدير ٤٠ ألفا ، بينما كان عدد جيش الروم يزيد على مائتى ألف .

وهنا موضع نكتة طريفة تلك هى : ان رجلا من المسلمين قال : ما أكثر الروم وأقلَّ المسلمين ! فسمعه خالد ، فقال :

« ما اقلّ الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر

---

(١) فلنتعاور : فلنتبادل .

(٢) كراديس : كردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة (القاموس المحيط) .

وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال ... والله لوددت أن الأشقر براء من توجيه[1] ، وأنهم أضعفوا فى العدد » .

مفاجأة عجيبة :

وبينما المسلمون والروم متصافون للقتال ، وقد أخذ بعض الفرسان من الجانبين فى الطراد ، إذ قدم البريد من المدينة فأحاط الناس بحامله وسألوه ما الخبر فقال. خيراً. أمداد تجيئكم ، ثم ذهب إلى خالد وأسرّ إليه موتَ أبى بكر واستخلاف عمر. فأخذ خالد الكتاب ولم يفتحه بل جعله فى كنانته[2] ذلك أنه خشى أن يحدث تخاذلٌ فى صفوف الناس إذا علموا بموت الخليفة .

قائد فارسى يسلم فى الميدان :

وخرج جرجة أحد أبطال الروم وقوادهم بين الصفين ، وطلب مبارزة خالد بن الوليد فسارع خالد إليه وأقام أبا عبيدة مكانه ، فلما دنا منه قال جرجة : هل لك أن يؤمن أحدنا الآخر حتى أسألك وتجيبنى عن بعض الأمور ؟ فوافق خالد على هذا الاقتراح .

---

(١) الأشقر : اسم فرس خالد ، وتوجيه : تعبه من الإجهاد .

(٢) الكنانة : جعبة السهام

فقال جرجة : يا خالد أصدقنى ولا تكذبنى فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع ، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟

قال خالد : لا !

قال جرجة : فبم سميت سيف الله ؟

قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا عنه ، ونأينا عنه جميعا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه فكنتُ فيمن كذبه وباعده وقاتله . ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به ، فتابعناه ، فقال : أنت سيفٌ من سيوف الله سله على المشركين ودعا لى بالنصر ، فسميتُ سيف الله بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين !

قال جرجة : صدقتنى ، فأخبرنى إلام تدعونى ؟

قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله وان محمدا عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله .

قال جرجة : فمن لم يجبكم ؟

قال : فالجزية ونمنعهم !

قال : فإن لم يعطها ؟ !

قال : نؤذنه بحرب ثم نقاتله !

قال جرجة : فما منزلة الذى يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم ؟!

قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا . وأولنا وآخرنا !

قال جرجة ـ وقد قلب ترسه ومال مع خالد ـ : علمنى الإسلام فأخذه خالد إلى فسطاطه ، وأمر له بماء ليتطهر به ثم لقنه الشهادتين ، وخرج يقاتل الروم مع خالد حتى استشهد فى ذلك اليوم .

انتصر المسلمون على الروم فى واقعة اليرموك انتصارا ساحقا ، وأبادوهم إبادة كاملة ، حتى قدر المؤرخون قتلى الروم بمائة وخمسين ، وبعد النصر سلم خالد أبا عبيدة بن الجراح كتاب عمر وحدث بينهما ما ذكرناه قبلا فى سيرة أبى عبيدة .

جندى بسيط :

استأنف خالد الجهاد فى جيش ابى عبيدة جنديا بسيطا ، وقد تقدمت بعض وقائعه أثناء ترجمة أبى عبيدة ، وكيف كان يجله ويحترمه ويستعين به فلا حاجة إلى تكرارها .

ولما مات ابو عبيدة انضم خالد إلى المجاهدين فى جيش عياض

ابن غنم بالشام فلما مات عياض انعزل بحمص فاقام بها حتى توفاه الله .

وقال خالد وهو يحتضر : لقيت كذا وكذا زحفا وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم وها أنا ذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت العير[1] . فلا نامت أعين الجبناء ! ثم قال :

« وما من عملى شىء أرجى عندى بعد التوحيد من ليلة بتها وأنا متترس ، والسماء تهلنى ننتظر الصبح حتى نغير على الكفار . إذا أنا مت فانظروا إلى سلاحى وترسى فاجعلوه عدة فى سبيل الله .

استقبل عمر قوما من الحجاج فقال : ممن القوم ؟ قالوا من اليمن ممن نزل حمص ويوم رحلنا منها مات خالد بن الوليد . فاسترجع عمر مرارا ، ونكس رأسه ، وأكثر الترحم عليه . وقال :

كان والله شداداً لنحر العدو ميمون النقيبة .

فقال على بن أبى طالب : فلم عزلته ؟

قال : لبذله المال لأهل الشرف وذوى اللسان !

---

(١) العير : الحمار .

قال : فكنت عزلته عن المال وتتركه على الجند !

قال : لم يكن ليرضى !

قال : فهلا بلوته ؟ فسكت عمر !

ولما جاء خبر موت خالد المدينة امتنع نساء بنى مخزوم عن بكائه خوفا من عمر . فقال :

ما على آل الوليد أن يسفحن على خالد من دموعهن مالم يكن نقعا أو لقلقة [1] .

مات خالد سنة ٢١ هجرية .

بين عمر وخالد :

أكثر الكاتبون من الكلام على ما كان بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد من تباعد . ولعل القراء ، قد أحسوا ما يشبه العتاب الشديد فى عبارات على بن أبى طالب التىأوردناها آنفا ، بشأن عزل عمر خالدا عن قيادة الجيش ، وأدركوا من سكوت عمر عنه ما يمكن أن يوصف بأنه كان يتمنى أنه لم يقدم على ما أقدم عليه من ذلك .

وقد وردت على لسان عمر عبارات أخر تنم عن هذهالأمنية،

---

(١) النقع : رفع التراب على الرءوس ، واللقلقة : الصراخ .

مثل قوله يعقب على تدبير حربى عظيم اقدم عليه خالد بعد عزله : « رحم الله أبا بكر كان أعلم بالرجال منى » ، ومثل أسفه ، حين تبين بعد موت خالد أنه مات فقيرا ، على اتهامه بجمع المال أو سوء تدبيره ، ولكن كل هذا لا ينفى أنه كان هناك تضارب بين طبيعتى هذين الرجلين العظيمين ، فلو لم يعزل عمر خالدا عن قيادة الجيوش للأسباب التى ارتكن إليها فى ذلك ، لعزله لأسباب أخرى ، يمليها عليه تعارض الطوابع واختلاف النوازع .

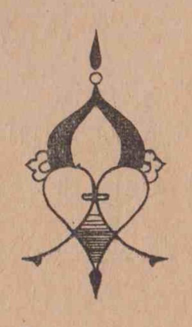
كان عمر حاكما عادلا مستبدا برأيه متعصبا لوسائله وكان قد اعتنق رأيا فى خالد أيام أبى بكر ، فلما واتته الفرصة أمضاه .

ولم تكن سياسة عمر مع خالد وقفا عليه خاصة ، بل عمت جميع كبراء الصحابة وأصحاب الجاه منهم ، فإذا استثنينا عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف فإنا لا نجد واحدا من وجوه الصحابة سلم من الاحتكاك بطبيعة عمر أو نجا من دِرّته . على أن هذا الاستثناء الذى أنشأناه ليس تاما فى الواقع ، إذ لو كان كذلك، وكانت ثقة عمر بهذين الصحابيين الجليلين كاملة لاستخلف أحدهما ، أما وأنه لم يفعل بل جعل الأمر دائرا بين ستة من الصحابة فقد حق ما قررناه !

ومهما يكن من شىء فإن عمر كان يصدر فى كل ما يحكمه

من امر او ينقضه من تدبير عن نية صادقة ، وتنزه لا يرقى إليه الشك . وحكمة بالغة ، إن خفيت أسرارها على بعض الناس لقنها آخرون ، وإن تأخر اليوم عن إظهار مزاياها تكفل الغد بذلك ما فى ذلك شك ولا ريب . ولعل ما تمخضت عنه السنون التى تلت حكمه من فتن هوجاء كان أعظم تبرير لسياسته بشأن إعفاء كبار الصحابة و نظرائهم من قواد الجيوش من ولاية وظائف الدولة المهمة أو مداومة البقاء بها زمنا طويلا !

رحم الله عمر وخالدا لقد كان كل واحد منهما فى بابه آية من آيات الله الكبرى . ومفخرة للعرب والإسلام على مر الأزمان وتعاقب الدهور .



٦) أسامة بن زيد

حِبّ الرسول

هو أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن مولاه ، وهما الاثنين كانا من محبة الرسول الكريم وعطفه فى الذّروة العليا ، حتى أطلق على كل واحدٍ منهما حبّ رسول الله ، وقد تقدم فى ترجمة أبيه ما يشبع هذه المسألة بيانا وتفصيلا !

وكان الرسول الكريم دائبَ الذّكر لمقتل زيد بن حارثة فى غزوة مؤته ، شديد الحرص على الإدالة[1] ممن قتلوه ، ومن أجل ذلك اعتزم تسيير جيش لتحقيق هذا الغرض ، وكان هذا الجيش آخر تدبير حربىّ له قبل وفاته .

غزو الروم :

ففى اخريات صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة ـ وذلك قبل وفاة الرسول الكريم بأسبوعين تقريبا ـ امر المسلمين بالتهيؤ لغزو الروم وألف جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، ودعا

---

(١) بمعنى أخذ الثأر

أسامة بن زيد وعقد له لواء هذا الجيش ، وكانت سنه حوالى عشرين عاما ، وقال له :

«سر إلى موضع قتل أبيك[1] فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش . فاغزُ صباحا أهل أبنى ، وأسرع السير لتسبق الأخبار . فإن أظفرك الله عليهم فأقل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء ، وقدّم العيون والطلائع معك » .

وكان هذا التوجيه يوم الاثنين ، فلما كان يوم الأربعاء بدأ بالرسول ﷺ مرضه فحمّ وصدع ، ولكنه فى صبيحة يوم الخميس تحامل على نفسه فخرج وسلم اللواء بيده إلى أسامة وقال له : أغزبا سم الله . وفى سبيل الله . وقاتل من كفر بالله » .

فخرج أسامة بالجيش وفيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وأضرابهم من الصحابة وعسكر خارج المدينة .

عتاب :

وتكلم الناس ، فقالوا يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين والأنصار ، فبلغ النبى ﷺ مقالهم فغضب غضباً شديداً ،

---

(١) قتل زيد بن حارثة فى قرية مؤتة وهى على مشارف الشام .

وخرج وقد عصب على راسه عصابة وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد أيها الناس . فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تاميرى أسامة . ولئن طعنتم فى تاميرى أسامة لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبله . وأيم الله إن كان لخليقاً بالإمارة ، وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة . وإن كان لمن احب الناس إلىّ ، وإنهما مظنة لكل خير . فاستوصوا به خيرا فإنه من خياركم » .

ثم نزل الرسول الكريم فدخل بيته ، وجاء المسلمون من رجال جيش أسامة ليودعوه . ثم ثقل عليه المرض فجعل يقول : « أرسلوا جيش أسامة » واستثنى منه أبا بكر ليصلى بالناس .

وداع ودعاء :

فلما كان يوم الأحد الموافق الحادى عشر من ربيع الأول دخل أسامة على النبى ﷺ ليودعه ـ وكان المرض قد اشتد عليه ـ فطأطأ أسامة رأسه فقبله وهو لايستطيع الكلام ، فجعل ﷺ يرفع يديه إلى السماء ، ثم يضعهما على أسامة ، وفهم أسامة أنه يدعو له بالخير .

وفاة الرسول الكريم:

وفى يوم الاثنين الموافق الثانى عشر من ربيع الأول أمر أسامة الجيش بالرحيل فأرسلت إليه أمه أم أيمن حاضنة النبى ﷺ تقول : لاترحل فإن النبي يموت فاقبل ومعه عمر وأبو عبيدة إلى منزل الرسول الكريم ، وماهى إلا ساعات حتى لحق بالرفيق الأعلى ، فرجع رجال الجيش إلى المدينة ، ورجع بريدة حامل اللواء إلى منزل الرسول فغرز اللواء بفنائه .

ولما شاع موت الرسول ﷺ بين العرب ، انتقض العرب ، فكفر كثيرون ، وتوسط آخرون الأمر فقالوا: نقبل الإسلام ونأبى الزكاة واستفحل أمر الكذابين من مدعى النبوة. وتجمهر الأعراب فى أماكن شتى منها ماهو قريب من المدينة معتزمين غزوها . وصار المسلمون الثابتون على عقيدتهم مثل الغنم فى الليلة الشاتية .

محاولات

وتحت تأثير هذه الامتحانات الشديدة تحدث بعض كبار الصحابة إلى أبى بكر فى امر جيش اسامة ، وقالوا : كيف يتوجه هذا الجيش إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة ؟

فغضب غضبا شديدا وقال : والله لأن تخطفنى الطير أحبّ إلى من أن أردّ جيشاً وجّهه رسول الله ﷺ أو أحل لواء عقده .

سفارة عمر :

ومن جهة أخرى كان أسامة نفسه متحرجا من المضى فى مهمته فى مثل هذه الأحوال فقال لعمر : ارجع إلى الخليفة فاستأذنه أن أعود بالناس ، فإن معى وجوه الصحابة ولا آمن عليه وعلى المسلمين أن يتخطفهم المشركون . وقالت الأنصار المصاحبون للجيش لعمر : فإن أبى الخليفة العدول عن رأيه فأبلغه منا السلام واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة .

وجاء عمر إلى أبى بكر فأنهى إليه رسالة أسامة فأبى ، فذكر له ماقاله الأنصار فاشتد غضبه وأمسك بلحية عمر ، وقال :

«ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب ، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أنزعه ؟ ! »

فخرج عمر إلى الناس ثائرا وقال : «ثكلتكم أمهاتكم مالقيت اليوم بسببكم من خليفة رسول الله خيرا ! »

ورأى ابو بكر أن يستاذن أسامة فى استبقاء عمر معه ليعاونه على أمره ففعل .

الجيش يتحرك :

وفى أول شهر ربيع الآخر تحرك جيش أسامة وجاء أبو بكر يودعه وأسامة راكب وأبو بكر راجل وعبد الرحمن ابن عوف يقود راحلة أبى بكر . فقال أسامة : ياخليفة رسول الله إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال والله لست بنازل ولستُ براكب ، ثم أوصاه فقال :

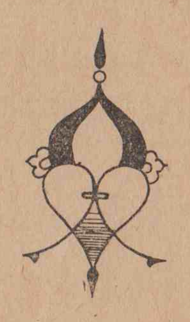
أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك .

وسار أسامة بالجيش حتى بلغ منازل قبيلة أبنى وهم القوم الذين قتلوا أباه - فأغار عليهم وهزمهم شر هزيمة وقتل قاتل أبيه وأسر منهم خلقا كثيرا وملأ يديه من المغانم ثم عاد إلى المدينة سريعا ، وقدم بين يديه بشيرا إلى أبى بكر يخبره أن الجيش قد أفلح فى مهمته ، وأنه فى الطريق إلى المدينة .

وقد استغرقت مهمة أسامة حوالى ستين يوما .

وقد حمد الناس فيما بعد لأبى بكر حسن تدبيره فى إرسال جيش أسامة إلى غرضه ، إذ كان لذلك من الأثر ماتجاوز المهمة

الأصلية بمراحل ، فقد ارعوى الأعراب الذين كانوا ينوون مهاجمة المدينة، وقالوا : لو أن بالقوم قلة لما أخرجوا هذا الجيش الكبير من بين ظهرانيهم فى مثل ما هم فيه من الأحوال ، وثبت آخرون على الإسلام. وسارع بعض مانعى الزكاة إلى إرسالها إلى المدينة تحت تأثير منطق القوة ولم يكن له مظهر أقوى ولا أبرز من خروج هذا الجيش إلى مهمته .



٧ المثنى بن حارثة الشيبانى

أسلم المثنى بن حارثة الشيبانى فى السنة التاسعة من الهجرة ، وكان أحد أفراد بنى شيبان الذين حضروا إلى المدينة وبايعوا النبى ﷺ .

أمرنى على قومى !

ولما استخلف أبو بكر قدم إليه المثنى وقال : يا خليفة رسول الله ، إن فى قومى إسلاما كثيرا فأمرنى عليهم حتى أجاهد أعداء الله من فارس ، وأكفيك ناحيتى ، فعقد له أبو بكر لواء على قومه ، وكانت منازل بنى شيبان فى حدود الصحراء مما يلى سواد العراق .

ورجع المثنى إلى قومه فجمعهم ودعاهم إلى الجهاد ، فاستجابوا له ، فأخذ يغير بهم على أطراف السواد وأسفل الفرات ، وهو فى كل غارة يروّع الفرس ويقتل بعضهم ويصيب مغنماً ، حتى أثار الاضطراب بين أهل السواد ، ونشر الرعب فى نفوسهم .

ولما ولى أبو بكر خالد بن الوليد حرب العراق ضم إليه المثنى بن حارثة ، وكتب إليه خالد يدعوه لمقابلته بالأبلة ،

وكتب بمثل هذا إلى سائر أمراء الجند الذين كانوا بالعراق .

مع خالد بن الوليد :

وأصبح المثنى منذ اجتماعه بخالد بمثابة ذراعه اليمنى فى جميع الأعمال الحربية : يقوم معه فى المعارك الكبرى ، وينتدبه خالد لينوب عنه فى أكثر المهام الحربية خطرا ، وأحوجها إلى الفطنة والدهاء ، ويجعله على مقدمة الجيش فى السفر ، ويركن إلى رأيه دائما وهو من هو فى الحرص والحذر !

وفى السنة الثالثة عشرة من الهجرة كتب أمراء الأجناد بالشام إلى أبى بكر يخبرونه بتجمع جيوش الروم فى اليرموك ، ويطلبون منه النجدة ، فأرسل إلى خالد يأمره بالمسير إلى الشام لنجدة المسلمين ، على أن يستخلف المثنى على من هناك من الجنود بالعراق .

واقعة بابل :

وعلم المثنى أن الفرس قد سيروا إليه جيشا ضخما بإمارة هرمز جاذويه ، ومع الجيش فيل ضخم قد درب على الحرب ، فخرج من الحيرة ، وضم إليه الكتائب التى كانت متفرقة فى الثغور والقرى .

وكتب شهر براز ملك الفرس الجديد إلى المثنى :

« من شهر براز إلى المثنى ، إنى قد بعثت إليك جندا من وحش أهل فارس ، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم ! »

فأجابه المثنى :

« من المثنى إلى شهر براز ، إنما أنت أحد رجلين، إما باغ ، فذلك شر لك وخيرٌ لنا ، وإما كاذب ، فأعظم الكذابين عقوبة ، وفضيحة عند الله والناس والملوك . وأما الذى يدلنا عليه الرأى ، فإنكم إنما اضطررتم إليهم ، فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير !! »

ولما اطلعت بطانة كسرى على رد المثنى جزعوا من سقطته ، وقالوا له : جرّأت عدونا علينا ، فإذا كتبت فى مثل هذا المقام فاستشر .

هزيمة الفرس :

والتقى المثنى بجيش هرمز جاذويه بعُدوة الصراة الدنيا على الطريق الأوّل ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ورأى المثنى عظم نكاية الفيل بخيل المسلمين لشدة نفورها منه ، وما يترتب على

ذلك من خلل فى الصفوف ، وتفويت الفرص على المجاهدين ، فعمد مع جماعة اختارهم ، إلى الفيل فقتلوه ، وعندئذ خسر الفرس عامل الكسب الذى كان بأيديهم وحمل المسلمون عليهم حملة صادقة فأزاحوهم عن أماكنهم وغلبوهم على أمرهم ، وهزموهم هزيمة شنعاء ، فولوا الأدبار ، وركب المسلمون أكتافهم يقتلونهم كيف يشاءون !

قرار خطير :

كان ابو بكر حين ارتدت العرب إثر وفاة النبى ﷺ قد اتخذ قرارا خطيرا جدًّا ، ألا وهو حرمان الذين عادوا إلى الإسلام بعد الردة من الجهاد فى سبيل الله ، ترفعاً عن الاستعانة بمن كفر بالله على جهاد أعدائه ، وكان عدد الذين ينطبق عليهم هذا القرار من سكان الجزيرة العربية يبلغ عشرات الألوف من الرجال ، وكان المثنى بن حارثة أحد من أحس مبلغ الخسارة التى تتعرض لها القوة العربية ما دام هذا القرار ساريا ، وبخاصة أن العرب قد افتتحوا ميادين حربية خارج جزيرتهم وهم يواجهون دولا غنية بالناس ، يزيد عدد الدولة منها كالفرس والروم على عدد سكان الجزيرة العربية أضعافا مضاعفة ،

فكيف يستقيم الأمر وأكثر من نصف العرب القادرين على حمل السلاح محروم من الجهاد ؟!

استولت هذه الفكرة على المثنى ، فسافر إلى المدينة يعرضها على أبى بكر ، وليستأذنه فى الاستعانة بمن قد ظهرت توبته من أهل الردة ، وليخبره أنه لم يخلف وراءه أحداً أنشط إلى قتال فارس وحربها منهم .

اسمع يا عمر !

وبلغ المثنى المدينة ، وأبو بكر فى مرض الموت ، فاستدعى عمر بن الخطاب وقال :

اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به ، إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فإن أنا مت فلا تُمسين حتى تندبُ الناس مع المثنى ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس معه ، ولا يشغلنكم مصيبةٌ وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم ، وقد رأيتنى متوفىَّ رسول الله ﷺ ، وما صنعت ، ولم يصب الخلق بمثله !

وتوفى أبو بكر إثر ذلك ، وكان أول ما بدأ به عمر انه ندب الناس مع المثنى قبل صلاة الفجر من هذه الليلة نفسها .

يخطب الناس بالمدينة :

ولما أصبح جاء الناس يبايعونه فعاد إلى انتدابهم لجهاد فارس مع المثنّى ، وانتهز المثنّى هذه الفرصة فخطب الناس فقال: أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجد فإنا قد تبحبحنا[1] ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد ، وشاطرناهم ونلنا منهم ، واجترأ من قبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها .

أبو عبيدة بن مسعود :

وكان أول من استجاب لدعوة عمر أبو عبيدة بن مسعود الثقفى وتتابع الأنصار والمهاجرون وغيرُهم من العرب يلبون دعوة الجهاد . فعقد عمر اللواء عليهم لأبى عبيدة ، وجعل المثنى تابعاً له ، وأمره بالعودة إلى جيشه لينتظر أبا عبيدة .

نجاح المثنى فى مهمته :

وأخذ عمر برأى المثنى بن حارثة فى مسألة العائدين إلى الإسلام من المرتدين ، فأذن لهم بالجهاد ، وكان المجاهدون بالشام والعراق قد فازوا بإحدى الحسنيين : إما الشهادة

---

(١) تبحبح فى المكان : تمكن . القاموس المحيط .

وإما الثراء ، ومن اجل ذلك سارع التائبون إلى الجهاد، وأصبحوا مدداً كبيراً للجيوش العربية ، وسنداً عظيما لها !

موقعة النمارق :

قدم أبو عبيدة الحيرة بعد شهر من مقدم المثنى ، وكان الفرس قد نشطوا من جديد فأرسلوا جيشاً كبيراً بقيادة جابان ، فخرج إليه أبو عبيدة والمثنى ، والتقى الجيشان بالنمارق ، فاقتتلوا قتالا شديداً انتهى بهزيمة الفرس وأسر جابان ، أسره عربى بسيط وأمنه على نفسه نظير فدية عرضها عليه جابان ، واشترط عليه أن يشهد على أمانه قائد الجيش العربى ، فلما جاء آسره به إلى أبى عبيدة عرفه بعض الحاضرين وقال : إنه قائد الفرس الأكبر فى هذه المعركة وصدقه كثير من الشهود ، ولكن أبا عبيدة أمضى أمان الجندى العربى ، وأبى أن يُخلّ به ، وقال : المسلمون فى التوادّ والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزمهم كلهم .

واشتبك أبو عبيدة مع الفرس فى وقائع أخرى وكان له النصر عليهم ، إلى أن جاءت معركة الجسر التى استشهد فيها وخبرها بالإيجاز هو :

معركة الجسر :

غضب الفرس لتتابع هزائم جيوشهم وفرار قوادهم ، فعمدوا إلى أشد رجالهم بأساً فجمعوهم فى جيش ضخم وأمروا عليهم أمهر قوادهم وأخبث رؤسائهم وهو بهمن جاذويه ، وعقدوا له لواء كسرى نفسه ، وزودوا جيشه بعدد كبير من الفيلة ، وسار الجيش الفارسى حتى بلغ الموضع الذى عسكر فيه أبو عبيدة على شاطىء الفرات الشرقى ، وأرسل إلى أبى عبيدة إما أن تعبر إلينا وأنت آمنٌ حتى يعبر الجيشُ كله وإما أن نعبر إليك على هذا الشرط ؟!

قضاء الله :

وأشار خاصة أبى عبيدة عليه ألاّ يعبر بالجيش وأن يدع الفرس يعبرون . ولكنه لأمر قضاه الله ، أصر على أن يعبر هو محتجاً بأنه لا ينبغى للفرس أن يكونوا أجرأ على الموت منا .

وعبر أبو عبيدة والجيش والتحموا فى معركة عنيفة مع الفرس ، لعبت فيها الفيلة دوراً خطيراً جدًّا ، ولما رأى أبو عبيدة ذلك سأل عن مقتل الفيلة ، فقيل له : مقتلها فى خرطومها ، فعمد إلى الفيل الكبير وضرب خرطومه بالسيف

فهجم عليه الفيل وضربه برجله ثم اتكأ بها عليه حتى فاضت روحه.

ووقع الخلل فى صفوف المسلمين إثر ذلك ، وتمكن الفرس منهم فاستشهد أربعة آلاف مجاهد ، وتمزق الجيش ، ولولا موقف المثنى وتضحيته العظمى لكانت المصيبة أضعاف ما حدث .

وبيان ذلك أن أحد المسلمين تصرف بجهالة إثر مقتل أبى عبيدة ، ذلك أنه لما رأى اختلال صفوف المسلمين عمد إلى الجسر فقطعه حتى لا يجتازوه إلى الشاطىء الآخر ، فقصد إليه المثنى وضربه وأعاد وضع الجسر ونادى فى المسلمين ايها الناس، أنا دونكم فاعبروا الجسر على هينتكم [1] ولا تدهشوا. فإنا لن نزايل مكاننا حتى نراكم قد عبرتم إلى الجانب الآخر .

وكان هذا التدبير الحازم الحكيم هو الذى حمى المسلمين من الإبادة الكاملة .

وأرسل المثنى بالخبر إلى عمر بن الخطاب فاشتد عليه الأمر وحزن لوفاة أبى عبيدة وقال : يرحم الله أبا عبيدة،لو كان انحاز إلىّ لكنت له فئة . يشير عمر بذلك إلى قوله تعالى :

« وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا

---

(١) على هينتكم : أى على مهل وطمأنينة .

إلى فِئَةٍ ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[1] » .

وقاية الله :

علم الفرس يوم معركة الجسر أن ثورة عارمة حدثت بالمدائن بسبب اختلاف الحكام على الرياسة ، فسارع القائد الأكبر بهمن ومن معه مرتدين إلى المدائن لينصر حزبه على الأحزاب الأخرى ، وكان هذا هو السبب الذى منع الفرس من عبور النهر واقتفاء أثر المسلمين .

قتل جابان :

وعلم المثنى أن جابان خرج فى عدد معه ليقطع طريق الرجعة على المسلمين . ولم يكن يعلم بارتداد بهمن إلى المدائن ، فخف إليه فى تجريدة خفيفة وفرق جمعه وأسره ، ثم أمر بضرب عنقه ، وهكذا لم تغن عنه الخديعة التى اصطنعها يوم النمارق ، وعهد القراء بها حديث ! .

---

(١) سورة الأنفال ، آية ١٦ .

واقعة البويب :

على أثر واقعة الجسر كتب المثنى إلى جميع قواد الجيوش من المسلمين بفارس أن ينضموا إليه ، وضرب لهم موعدا موضع البويب فتلاقوا هناك ، وكان الفرس قد أجمعوا كلمتهم على ملاحقة العرب وإخراجهم من ديارهم ، فألفوا جيشا كبيراً وجعلوا على رأسه القائد مهران فسار إليهم حتى حازاهم على شاطىء الفرات وقال لهم : إما أن تعبروا أو نعبر ، فأرسل إليه المثنى : اعبروا أنتم فعبروا واصطفوا ، ثم عبأ المثنى جيشه تعبئة قوية ، وكان الوقت شهر رمضان ، فأمر الجيش بالإفطار ليكونوا أقوى على عدوهم .

وطاف المثنى على الجيش يتفقد نظامه ويقف على الرايات راية راية ، يحضهم على الصبر ويهزهم بأحسن ما فيهم ، ويقول لكل صاحب راية : إنى لأرجو أن لا يؤتى العرب من قبلكم ، وأنصفهم فى القول والفعل ، وخلط الناس فى المكروه والمحبوب . ثم قال : إنى مكبر ثلاثاً فتهيئوا ، ثم احملوا مع الرابعة . فلما كبر اول تكبيرة أعجلهم أهل فارس واشتبكوا فلم يكن هناك وقت للباقى .

عرب قبل كل شيء :

وكان بعض العرب من نصارى بنى تغلب و بنى النمر قد جاءوا ليشهدوا المعركة ، فلما حمى القتال قاتلوا مع إخوانهم العرب حمية وحفاظا ، وقال المثنى لأحدهم واسمه أنس بن هلال : ياانس ، إنك امرؤ عربى وإن لم تكن على ديننا ، فإذا رأيتنى قد حملت على مهران فاحمل معى أنت ومن معك ، ثم حمل المثنى على مهران وهو فى قلب الجيش الفارسى فأزاله عن مكانته حتى خلطَ القلب بالميمنة ، وقتل فتى من التغلبيين النصارى الذين كانوا يحمون ظهر المثنى مهران قائد الفرس وصاح : قتلت مهران أنا الغلام التغلبى ! . .

وهزمت الفرس ومضت علي وجهها لاتلوى على شىء وأرادوا عبور الجسر فسبقهم المثنى إليه وقطعه فأخذت خيلهم تجول يمينا ويسارا والمسلمون فى إثرها يقتلون الفرس قتلا جماً حتى ملأت جثثهم أرض المعركة وماجاورها من فراغ . وقد قدرها المحصون بمائة ألف قتيل .

وفاة المثنى :

على أثر تعيين يزدجرد بن كسرى ملكا على الفرس التفت

فارس كلها حوله ، وطالبته أن يخلصها من العرب فنشط لذلك وعمد إلى تجييش الجيوش واختيار القواد الأكفاء ، وأرسل إلى أهل السواد يأمرهم بالانتقاض على العرب واستئناف ولائهم له فسارعوا إلى تلبية ندائه ، وعلى ذلك اضطربت البلاد وتحرج مركز المسلمين . فكتب المثنى بذلك إلى عمر بن الخطاب وطلب رأيه ورده وجاءه رد عمر مشيرا بالانسحاب من داخل السواد والمقام على حدود الصحراء فى انتظار النجدة التى سيرسلها إليه.

وكان ماسبق أن عرفه القراء فى أول هذا الكتاب فى ترجمة سعد بن أبى وقاص من تعيينه أميرا على الجند بالعراق .

ولم يستطع المثنى الحضور إلى سعد ، إذ أنه كان يشكو من جراحه التى أصيب بها فى معركة الجسر . وقد مات متأثرا بها عقب ذلك .

وكان المثنى أشبه الناس بخالد بن الوليد فى اكتمال ملكة الحرب عنده ، وتمتعه بأفضل مزاياها من الشجاعة وسرعة الخاطر ، وحدة الذكاء ، وانتهاز الفرص ، ومباغتة العدو ، والاستهانة بالحياة ، وطلب الاستشهاد فى سبيل الله ، ولم يلق ربه إلا بعد أن دوى اسمه فى فارس وأصبح مثار فزع فيها ومصدر اضطراب لها . رحمه الله وأرضاه .